اقرأ

محمد سعيد العريان

بنت قسطنطين

قصة تاريخية

دار المعارف بمصر

بنت قسطنطين

قصة تاريخية

محمد سعيد العريان

بنت قسطنطين

قصة تاريخية

اقرأ ١٤١
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٤١ — أول سبتمبر ١٩٥٤



١

حديث القاص

فرغ الناس فى مسجد الرّقة من صلاة العشاء الآخرة ، فتنفّلوا ما طاب لهم التنفل ، ثم دلفوا إلى حيث كان أبو داود الحمصى مستنداً إلى سارية من سوارى المسجد يقص القصص ويرغّب فى الجهاد ويروى من أنباء المغازى والفتوح ما يحمّس الجبان ويشدّ العزم ويستلب ألباب الشيوخ وقلوب الشباب. . .

وكان أبو داود هذا قاصاً واسع الرواية ، عذب الحديث ، لطيف الإشارة ؛ قد تتبع أنباء المغازى والفتوح منذ أول عهد العرب بالفتح ، فأتقنها حفظاً ورواية وتمثيلا بالقول والإشارة ونبر الصوت ، حتى ليحسب كل من سمعه يقص أنه شهد بعينيه وشارك بسيفه فى كل معركة من معارك الفتح فلم يتخلف عن واحدة !

وكان رجلا فى الأربعين لم يطعن فى السن ولم تُثقل كاهله السنون ، قصيراً بطيناً معتجر العمامة قد أرسل لحية تضرب أطرافها على بطنه ؛ فما يراه أحد فى منظره ذاك ويستمع

إلى حديثه مُسنداً إلى الرواة من أبطال الفتح ، إلا ظنه شيخاً عميق الجذر بعيد المولد والدار ، إلا تكن له صحبة أو هجرة فإنه — لا بد — قد عاصر وغزا واستظل فى معارك الفتح بلواء الفوج الأول !

وكان عظيم القدر عند أمراء بنى أمية فى الشام ، فهو جليسهم وجارهم ما أقام بدمشق ، فإذا بدت له الرحلة إلى أى بلد من بلاد الإسلام لم تزل صلاتهم وعطاياهم ترد عليه حيث كان ؛ على أن أمير المؤمنين عبد الملك كان أكثرهم عطفاً عليه وصلات إليه ، وكان يقول له : لسنا نحاول اصطناعك بهذا يا أبا داود ، بل أنت اصطنعتنا بخالص ولائك وكريم بلائك لنصرة بنى مروان . . .

* * *

وتكاملت الحلقة ، وأخذ أبو داود يتنقل بالناس فى قصصه من فنّ إلى فنّ ومن واد إلى واد ، فهو حيناً فى البر ، وحيناً فى البحر ، وطوراً على ظهر البادية ، وتارة فى ظل حصن من حصون الروم فى المغرب أو فى المشرق ، وآونة فى سهول الجزيرة وفيافى العراق يصف كيد الخوارج وتطاحن الفرق . . .

ثم قال :

« ضل من فتنته دنياه عن دينه ، وشغلته أولاه عن آخرته ،

وأزلّه الشيطان فأذله ، وأطمعه السلطان فأضرعه !

« ألا إن قوماً فى بعض الأمصار — غفر الله لهم — قد زين لهم الباطل ، فشرعوا سيوفهم لحرب أمير المؤمنين ، يأبون — بزعمهم — أن تكون هرقلية يتوارثها خلف عن سلف ، فهلا شرعوا سيوفهم هذه لحرب هرقل ، ودك معاقل الكفر فى بلاده ، ونشر دين الله فى الأرض ! »

وصمت أبو داود برهة ، ثم رفع عينيه يجول بهما فيمن حوله وهو يخلل لحيته بأصابعه ، ثم استأنف حديثه :

« حدثنا نصر بن عوانة — وكان فى جيش عقبة بن نافع بالمغرب — قال : لقد رأيت عقبة وقد بلغ بجيشه شاطئ الأقيانوس الأخضر ، فيدفع حصانه إلى البحر ويقول بحماسة : اللهم ربَّ محمد ، لولا أنى لا أعلم وراء هذا البحر يابسة لاقتحمت بحصانى هذا الهول المائج لأنشر اسم مجدك العظيم فى أقصى حدود الدنيا !

« رحم الله عقبة ! وأين مثل عقبة ؟ فإن قسطنطين بن هرقل ما يزال وراء هذه الحدود المتاخمة ، يتهدّد أصحابنا بالغارة بعد الغارة برًّا وبحراً ، فهلا خرجنا إليه لننشر اسم الله المجيد فى أقصى بلاد الروم ! ضل من جعل إلهه هواه ! ألا إنه لولا ابن هرقل على هذه التخوم لما صارت — بزعمهم — هرقلية ! »

وتلبَّث القاص برهة أخرى ، ثم استأنف :

« لقد كان معاوية ، وكان ابنه يزيد ، وكان مروان ؛ ثم كان أمير المؤمنين عبد الملك . كأنما لم تمض تلك السنون ، وكأنى أرى الساعة وأسمع تكبير جند الشام يقودهم يزيد ابن أمير المؤمنين ، وفيهم ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وأبو أيوب الأنصارى جار رسول الله ومُضيفه فى دار هجرته ؛ قد ركبوا فى عشرات الآلاف من الجند ، تقلهم سبعمائة وألف سفينة قد صنعها معاوية بعينيه من أرز هذه الغابات الكثيفة فى جبال لبنان ، ثم أرسلها فى البحر لحرب الروم ، تغزو بلادهم ، وتدك حصونهم ، وتملك جزائرهم فى البحر ، وتأخذ عليهم طريقهم فى البر ، وتطوِّق مدينتهم هذه التى بناها قسطنطين الأول واتخذها قاعدة لملكه ؛ فلا يزالون على حصارها سنين ذات عدد ، لا يصدر منها صادر ولا يرد إليها وارد ، حتى يبلغ الجهد بقسطنطين وأهل ملته ما يبلغ ، فيعطى الجزية صاغراً . . . ويعود المسلمون ظافرين لم يتخلف من رؤسائهم غير أبى أيوب ، قد دُفن عند سور القسطنطينية كما وعده رسول الله !

« رد الله غربتك يا أبا أيوب !

« مُضيف رسول الله أول هجرته إلى المدينة قد ثوى تحت أسوار القسطنطينية ضيفاً على أهل الكفر !

« يا أبناء المهاجرين من ضيوف أبى أيوب ، يا أبناء الأنصار من صحابته ؛ إن أبا أيوب لم يزل كريماً كعهدكم به ؛ فهاجروا إليه يضيِّفكم فى داره الجديدة كما ضيَّف نبيكم محمداً منذ سنين سلفت ! »

هتف عتبة بن عبيد الله وقد مسّ حديث الشيخ شغاف قلبه :

ــ لبيك أبا أيوب !

فضج المجلس وراءه بالتلبية . . .

ذلك شأن القاصّ أبى داود وذلك شأن الناس معه : لا يزال يتنقل بين الأمصار ، يدعو إلى الجماعة أو يدعو إلى جهاد أهل الشرك ؛ فيستجيب له من يستجيب ويلبى من يلبى . . .

ولكن الفتنة التى نشبت بين أهل القرآن منذ سنين لم تطفأ بعد ؛ فلا يزال فى كل بلد داع يدعو لنفسه ويؤازره من المسلمين طائفة ؛ فأمير المؤمنين فى الحجاز وما والاها عبد الله ابن الزبير ، وأمير المؤمنين فى الشام عبد الملك بن مروان ، ولا يزال فى الجزيرة والكوفة وما وراءها من أرض المشرق داع

أو دعاة يهتفون باسم أمير من بنى على بن أبى طالب ؛ وفى دمشق نفسها لا يزال واحد أو أكثر من السُّفيانية أو غيرهم من فروع بنى أمية ينفس على بنى مروان أن تكون الخلافة فيهم ... وعبد الملك يحاول أن يوطِّئ لنفسه بين هذه الزعازع ، فلا ينفك متنقلا على رأس جيشه من مصر إلى مصر مكافحاً صابراً قد استحل سفك الدم فى سبيل توطيد العرش وتوطئة الأكناف لبنى مروان ، وكان قبل أن يليها شيخاً من أهل الرأى لا يكاد يفارق مسجد رسول الله فى المدينة أو يدع المصحف !

وحلت سنة ٧٠ من الهجرة ولا تزال الفتنة ناشبة ، وكان الروم قد انحسروا عن أرض المشرق فليس لهم فى الشام باع ولا ذراع ، ولكنهم منذ جلوا عن أرض المشرق لم تزل أنفسهم تنازعهم إلى استرداد ما فقدوا من تلك الأرض الواسعة الخصبة ، فكأنما انتهزوا هذه الفتنة الناشبة فسيروا جيوشهم إلى أنطاكية فحاصروها ، ثم وضعوا أقدامهم وأوغلوا فى البلاد . . .

٢
عهد ونذر

كان النعمان بن عبيد الله يدندن بيتاً من الشعر :

أروح إلى القصّاص كل عشية   أرجّى ثواب الله فى عدد الخطا

حين ابتدره أخوه عتبة :

ــ قد مسّ والله حديث أبى داود القاص شغاف نفسى ؛ وما أرى هذه الفتنة الناشبة فى الأمصار إلا كيداً من الشيطان لتفريق الجماعة وصدع الجبهة والتمكين للمشركين أن ينالوا منا منالهم ؛ وإن هؤلاء الخوارج ليزعمون أنهم يدعون إلى الله ، ويغفلون عما وراء ذلك العصيان من تفريق الكلمة ووهن المسلمين ؛ ولو أن هذه الجموع المسلمة التى تساق كل يوم إلى المذابح بالأيدى المسلمة ، قد سيقت صوائف وشواتى إلى بلاد الروم ، لرجوت أن تكون القسطنطينية بأيدينا وينزل المسلمون ضيوفاً على أبى أيوب ! . . .

ثم استطرد قائلا فى عزم :

ــ وإنى قد رأيت يا نعمان رأياً أرجو أن تمضى فيه معى . . .

قال النعمان مستدركاً :

ـ دع عنك ما رأيت يا أخى وأعد علىَّ ما قلت : أزعمت ـ ويحك ـ أن ابن مروان أحقُّ بها من عترة محمد ومن ابن ذات النطاقين ؟ لقد مات أبوك إذن على ضلال يا عتبة ؛ فقد علمتَ ما أبلى أبوك يوم الجمل وفى حرب صفين ومعركة الطف ، فلم يقعد عن الحرب حتى استشهد مع المختار ابن أبى عبيد طلباً لثأر الحسين ؛ أفهذا تعنى حين تذكر صدع الجبهة ووهن المسلمين ؟ . . .

صمت عتبة برهة مفكراً ، ثم رفع رأسه يقول :

ـ ما هذا عنيتُ يا أخى ، ولقد اجتهد أبى ما اجتهد لصلاح هذه الأمة ، حتى ذهب إلى ربه راضياً مرضياً ؛ وإنى لأرجو أن يقبل الله شهادته ؛ ولكن نفسى لا تطيب بأن أحارب إخوانى فى الدين وأدع هؤلاء الروم حتى يطأوا من بلادنا كل موطئ ويسترقّوا الحرائر والولدان من نسائنا وبنينا ؛ فسأطلب منذ الغد إلى مسلمة بن عبد الملك أن يُغزينى فى صائفته ؛ لعلى أن أدرك نصراً أو أجاور أبا أيوب !

* * *

ولكن مسلمة بن عبد الملك لم يخرج فى هذا الموسم لحرب الروم صائفاً ولا شاتياً ؛ فقد كان عبد الملك من أصالة الرأى

وحسن التدبير بحيث رأى أن مصانعة جوستنيان الثانى قيصر الروم خير له فى هذه الفترة التى تعصف فيها العواصف بالدولة الإسلامية ، فصالحه على أن يؤدى إليه فى كل جمعة ألف دينار ؛ ليفرغ لتدمير قوة ابن الزبير ويحطم الخوارج ويرد كيد ابن عمه عمرو بن سعيد . . .

وهدأت أمواج البحر ، وسكن غبار البادية ؛ ولكن عتبة ابن عبيد الله لم يعد إلى داره بالرقة منذ كان ذلك الحديث بينه وبين أخيه النعمان ، ولم يقف له أحد على خبر !

وطال الانتظار بأهله حتى آب كل غائب ، ولكنه لم يؤب ؛ وهدأت الفتن فى الدولة الإسلامية أو كادت ، وانقضى أمر ابن الزبير ، واغتيل عمرو بن سعيد منافس عبد الملك على عرش بنى مروان واستتب لهم الملك ، وعادت الصوائف والشواتى تغدو وتروح فى البر والبحر تغزو بلاد الروم فتصيب منها ما تصيب ثم تثوب ، ولم يؤب عتبة ابن عبيد الله !

وقال جيرانه وأهله :

ـ يرحمه الله ! لقد آثر جوار أبى أيوب المضياف ، فمات غازياً فى بلاد الروم !

وبكت أمه ما شاءت ، ثم فاءت إلى الرضا بقضاء الله !

وخلعت امرأته أحمرَها وأبيضها ولبست الحداد ، ولزمت دارها ترأم طفلا فى حجرها وطفلة فى بطنها !

وقال أخوه النعمان لنفسه متأسياً : نِعم العزاء الصبر فى الغازى الشهيد الغريب المُطفل !

وأقسم لا يدع السيف حتى يلحق بأخيه أو يدرك ثأره ، ولا يكون ثأره إلا بطريقاً من بطارقة الروم !

وأخذ النعمان أهبته منذ ذلك اليوم للبر بما أقسم ! . . .

وتتابعت الصوائف والشواتى فى البر والبحر لغزو الروم ، فلم يتخلف النعمان بن عبيد الله فى صيف ولا شتاء عن دعوة الجهاد !

٣

ابنة البطريق

لم يَطب الروم نفساً بسياسة القيصر جوستنيان الثانى ؛ ونقموا عليه أن ضيَّع عليهم الفرصة المتاحة لاسترداد سواحل الشام فى سنة ٧٠ للهجرة ، بعدما وطئتها أقدامهم وقاربوا أن يملكوها ويوغلوا فى بلاد العرب ، لا يكاد يدافعهم أحد من جند الخليفة

المنهوك القوة فى قمع الفتن الناشبة فى الأمصار الإسلامية . لقد كان عبد الملك أعرف بنفس هذا القيصر وأسدّ منه سياسة ، فطلب إليه الصلح على مال يؤديه إلى الروم كل جمعة ، فتحلّب لعاب القيصر إلى ذهب بنى مروان وأجاب الخليفة إلى ما طلب ؛ ولكنه لم ينعم بهذا السلم الذهبى طويلا ، فما هو إلا أن فرغ عبد الملك مما كان فيه حتى منع القيصر ما كان يؤدى إليه من مال ، وجهز الجند فى البر والبحر صائفة وشاتية للغارة على الثغور الرومية . . .

وكان قادة جيش الروم أشد سخطاً على القيصر لهذه الخيبة ، فثاروا به وقبضوا عليه فجدعوا أنفه ونفوه إلى بلاد القريم ، ثم راحوا يتنازعون العرش فيما بينهم ، فيلونه قائداً بعد قائد ، وقيصرهم فى منفاه مجدوع الأنف منكسر النفس لا يكاد يملك لنفسه أمراً ، والصوائف العربية لا تزال تغير على الثغور والسواحل فتصيب من الروم مقاتل وتحمل أسارى وسبايا وولداناً . . .

وكان البطريق قسطنطين على ثغر من تلك الثغور التى تشرف على الخليج مما يلى القسطنطينية ، لا يزال يستقبل كل صيف غُزاة من العرب يناوشهم ويناوشونه ، فينال منهم حيناً وينالون منه ، ويصيب منهم أسرى وقتلى ويصيبون ؛ وكان له

عند العرب ترات وتاريخ بعيد ، وقد اصطنع فى الحرب خطة عربية ، فهو يخرج إلى لقائهم — حين يخرج — ومعه نساؤه وراء الصفوف يهزجن بالأغانى للتحميس ويضربن الفارِّين فى وجوههم بالعمد أو يحصبْنهم بالحصى ليردنهم إلى الحرب ؛ وقد أيقن قسطنطين البطريق أنه إلا يدفع عن نفسه وعن ثغره فلن يدفع عنه أحد من الروم الذين توزعتهم المطامع وفتَّ فى أعضادهم ما لقوا من الهزائم المتوالية فى حرب العرب ؛ وعلى هذا اليقين رابط فى ذلك الثغر مدافعاً شديد العزم والقوةسنين طويلة !

وفجأتهم ذات مساء سريةٌ من سرايا العرب ، قد هبطت فى جنح الليل على الساحل ثم أوغلت حتى طرقت القوم فى بيوتهم على حين غفلة فأعجلتهم عن أخذ الأهبة ، والتحموا أجساداً لأجساد يتجالدون بالسيوف أو يتصارعون بالأيدى ، لا يكادون يتعارفون فى ظلام الليل إلا بالتكبير والتلبية ، وكان شعار المسلمين يومئذ :

— الله أكبر ؛ لبيك أبا أيوب !

ووقف قسطنطين فى وسط الملحمة يرطن بالرومية وهو يجيل سيفاً فى يمينه له فى الظلام بريق يومض ؛ وبصر به النعمان بن عبيد الله فى غبشة الليل ولم يكد ؛ فنهد إليه وهو يقول وسيفه فى يده :

ـ إنى لأرجو أن أبرَّ بك قسمى أيها البطريق ، فأثأر لأخى أو أنال الشهادة !

ثم عطف عليه بالسيف ، فأفلت منه قسطنطين واحتوشته داره ؛ واقتحم النعمان وراءه فتهارب الصبيان والنساء بين يديه ولم ينل منالا .

وتشتت شمل أصحاب قسطنطين وذهبوا فى الأرض فارين لا يلوون على شىء ، قد خلَّفوا متاعهم وسلاحهم ، وتخلف عنهم بعض النساء والصبيان فسيقوا إلى مضرب الأمير ؛ وعاد النعمان بن عبيد الله إلى صحابته ليقاسمهم ما أفاء الله عليهم من الغنائم فى هذه الغارة المظفرة ، فلم يكن نصيبه من ذلك إلا فتاة من بناتهم لم تنضج نضج الأنثى ولكنها جاوزت حد الطفولة ... وكان عليها مطرف خز ، وقد تدلت على صدرها قلادة من ياقوت ، ولمعت فى مفرقها جوهرة ؛ فقال النعمان : إلا تكن هذه بنت البطريق فإن لأبيها بين القوم شأناً !

ثم مال إليها يداعبها ويسألها عن شأنها وشأن أبيها فلم تجب بلسان ، ولو أنها أجابت لما أبانت ، فليست تعرف إلا الرومية ، وليس يعرف النعمان إلا العربية . . .

واستقل الغزاة سفينتهم قبل أن ينبثق الفجر ، وأداروا شراعها نحو الغرب ، ثم انحدروا نحو الجنوب ؛ يلتمسون ثغراً من ثغور

المسلمين يأوون إليه ، وكلهم فرح بما أفاء الله عليه من السلامة والغنيمة والظفر بالعدو !

٤
ويك مسلمة !

ثبتت دعائم العرش لبنى مروان ، ولم يكن الخليفة عبد الملك فى غفلة عما يقتضيه هذا العرش من حق التدبير فى حياته وبعد موته . . . فإنه ليخشى أن يتواثب إليه الطامعون من السفيانية أو الهاشمية بعد موته. وقد خلّف عبد الملك بضعة عشر ولداً كلهم لأب ولكن أمهاتهم شتى ؛ منهن العبسية ، والمخزومية ، والهاشمية ، والسفيانية ؛ ومنهن أمهات أولاد من الترك والسودان والروم وبنات كسرى ؛ فما أحرى كل واحدة من هؤلاء الضرائر أن ترجّى العرش لولدها ، وأن ينفخ فيه أخواله من روح العصبية ما يدفعه إلى الفتنة . . .

لقد كان عبد الملك شيخاً من أهل الرأى قبل أن يلى هذا الأمر ، وكانوا يسمونه فقيه بنى مروان ؛ لصلاحه وعلمه وطول ملازمته لأهل الحديث وحملة القرآن وأصحاب الرأى من

العباد والصالحين وأهل التحرج ؛ فما كان أجدر شيخاً هذا مكانه أن يترك أمر المسلمين شورى بينهم يختارون بعده من يشاءون ليلى أمرهم ، لولا أنه يخشى عليهم الفتنة ؛ فليولِّ عهده رجلا من أهل هذا البيت المروانى ينهض بأمر الدولة من بعده ، ليذهب إلى ربه راضياً مطمئناً قد أمن على هذه الأمة أن تتوزعها الفتن وأسباب المطامع !

إن أباه مروان قد جعل العهد من بعده لأخيه عبد العزيز ابن مروان ، ولكن عبد الملك يرى بنيه أحق بهذا العرش وأقدر على صيانته ، لولا أن بنيه كثير ، قد تقاربوا أعماراً وتشابهوا مزايا وتشاكلوا كفاية !

لو لم يكن الوليد لحَّاناً لا يكاد يقيم لسانه بالعربية ، متلافاً لا يكاد يمسك درهماً . . . إنه لأحب إلى عبد الملك ، وإن أمه لأدنى إلى قلبه منزلة !

ولو لم يكن سليمان بطيناً أكولا تيَّاهاً كثير العُجب بنفسه . . . إن أمه العبسية لترجوه كما ترجو أخاه الوليد ، ولكن الوليد أسنُّ منه !

وإن هشاماً لحقيق بأن يلى هذا الأمر يوماً ، لولا أنه جبان بخيل ، ولولا خشية ما يتدسس إليه من حمق أمه المخزومية ؛ وهل ترى عبد الملك يولى عهده ابن مطلقته الحمقاء ويدع

الذين نشأوا على عينيه من بنيه ؟

وإن يزيد لأعرق بنيه أمومة ، فأمة عاتكة بنت يزيد ابن معاوية ؛ أبوها خليفة ، وجدها خليفة ، وزوجها خليفة ؛ فما أحرى ولدها أن يكون خليفة كذلك فيضم المجد من أطرافه ، لولا أن يزيد لم يزل صبياً لم يبلغ مبلغ أهل الرشد !

وهناك — إلى هؤلاء — عبد العزيز بن مروان ، أخو الخليفة ؛ لا يزال يطمع فى العرش بعد عبد الملك بعهد من أبيه مروان !

ولكن ما بال عبد الملك لم يذكر ولده مسلمة ، وإنه لأشبُّ بنيه شباباً وأجرؤهم قلباً وأسدُّهم رأياً وأكثرهم حمية ؛ وله الرايات البيض لا تزال تخفق على السفائن غادية على سواحل الروم للغزو ، أو مرفرفة فوق رؤوس الجند فى البرية لبيات العدو . . . ولكن مسلمة — إلى كل ذلك — من أبناء الجوارى ؛ فكيف يليها ابن الرومية ويُحرمهما أبناء الحرائر من بنات عبس ومخزوم وأمية ؟ . . .

* * *

أقيمت حلبة السباق فى ظاهر دمشق على العادة فى كل موسم ، وتقدم فتيان العرب بأفراسهم المضمَّرة يطمع كل منهم أن ينال بالسبق جائزة أمير المؤمنين عبد الملك ؛ وجلس عبد الملك

على شرف فى طرف الحلبة ، قد أقيم له سرادق من خز ونصبت على رأسه راية بيضاء ؛ وكان الشوط الأول للأمراء من بنى عبد الملك : الوليد ، ومسلمة ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام .

وأشار رائض الحلبة إشارته ، فوثب الأمراء على ظهور الجياد وشدوا اللُّجم ومالوا على الأعناق ، يتبعهم الآلاف بعيون جاحظة وأنفاس مبهورة وأعناق تتلوى على كواهل أصحابها ؛ وبدا كأن مسلمة سيبلغ آخر الشوط قبل إخوته ، فبدت الكراهة فى وجه عبد الملك ، على حين انبعث من جوانب الحلبة هتاف الجماهير باسم الأمير المظفَّر فى كل غزاة : مسلمة بن عبد الملك !

ولكن فرس مسلمة لم يلبث أن عثر براكبه ، ثم لم يكد ينهض ليستأنف عدوه حتى سبقه إخوته جميعاً وبلغوا آخر المدى...

وطأطأ مسلمة رأسه أسفاً وهو يتقدم فى صف من إخوته إلى مجلس أبيه فى سرادقه ذاك ، ليستمع إليه وهو ينشد متمثلا :

نهيتكمو أن تحملوا فوق خيلكم
هجيناً لكم يوم الرهان فيدرك...

فتعثر كفاه ، ويسقط سوطه ،
ويخدر ساقاه فما يتحرك

وهل يستوى المرءان هذا ابن حرة
وهذا ابن أخرى ظهرها متشرّك ؟

قال مسلمة وقد بدا فى وجهه الغضب :

— يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ؛ ليس هذا مثلى ، ولكن كما قال الآخر :

فما أنكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خطبناهم بأرماحنا قسراً
فما زادنا فيها السبـــاء مذلة ... ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدراً
وكم قد ترى فينا من ابن سبيّة ... إذا لقى الأبطال يطعنهم شزْراً
ويأخذ ريان الطعـــان بكفه ... فيوردها بيضاً ويصدرها حمراً . . .

ثم أردف :

— إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات يا أمير المؤمنين ، وقد كانت أم إسماعيل بن إبراهيم جارية . . .

ولمعت دمعتان فى عينى عبد الملك واختلجت شفتاه ، فقال وهو يميل على مسلمة فيقبل رأسه وعينيه :

— أحسنت يا بنى ، ذاك والله مكانك !

وانفضت الحلبة ، وعاد عبد الملك إلى قصره وعاد بنوه ؛ ولكن حديثاً ما ظل يدور فى رأس عبد الملك منذ ذلك اليوم ، ويدور مثله فى رأس مسلمة وفى رءوس أخرى . . .

٥
أمهات الملوك !

فى غرفة من غرفات القصر الأموى الشامخ بدمشق ، اجتمع أربع نسوة لم يجتمعن من قبل على مودة :

ولادة بنت العباس العبسى ، وعاتكة بنت يزيد بن معاوية ، وعائشة بنت موسى بن طلحة التيمى ، وأم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان ، زوجات عبد الملك ؛ لم يتخلف عن مجلسهن إلا مطلقته أم هشام المخزومية !

. . . قالت ولادة ، أم الوليد وسليمان ، بعد صمت :

— بلى ، قد أحل الله له فراش جواريه ، فهن له حلائل ، ليس لواحدة من زوجاته أن تمنعه أن يفىء إلى خلواتهن فى أى وقت شاء من ليل أو نهار ؛ ولكن للحرائر من زوجاته العهد والأمومة ؛ إن الوليد وسليمان ، وإن يزيد وأبا بكر والحكم وهشاماً — لأولى بعهد أمير المؤمنين من عبد الله ومسلمة ومحمد وسعيد ومن لا أذكر من أبناء جواريه وإمائه ؛ فليطب لهن

فراش عبد الملك ؛ أما عرش بنى أمية فلن يكون لأحد من أبنائهن !

قالت عاتكة أم يزيد :

ــ أترينه يا ولادة يغفل عن ذلك الحق؟ إنه لأسدُّ رأياً من ذاك ؛ وقد سألته أمس حين أوى إلى مقصورتى لبعض الراحة حين مُنصرفه من حلبة السباق ، عما حدثنى به يزيد من إقباله على مسلمة دون إخوته ، وتقبيله إياه على ملأ من الخلق فى رأسه وعينيه ، واستنشاده إياه شعراً يعرِّض فيه بأبناء الحرائر ؛ فضحك عبد الملك وقال : أظننت يا عاتكة أننى أفعلها ؟ إنى لآمل أن يكون يزيد على عرش بنى أمية خلفاً من أبيه وجده وجدِّ أمه !

انقلبت سحنة ولادة كأنما أصابها المسخ ، ونسيت مجلسها من ضرائرها وما دعتهن إلى الحديث فيه ، فقالت منكرة :

ــ أى شىء تقولين يا عاتكة ؟ وهل أوى عبد الملك إلى غير مقصورتى حين منصرفه من حلبة السباق ؟

قالت عائشة بنت موسى :

ــ نعم ، وجلس إلىَّ ساعة يرقِّص أبابكر ويغنى له :

يا ملكاً من ملك من ملكِ
تيهْ واستطـــل على الملا وامتلكِ

وَلِدْ ملوكاً كنجوم الحلك
يستبِقون للعـــلا فى فلك !

قالت أم أيوب العثمانية محنقة :

ــ أما الحكم ابنى فلم يرقِّصه أحد أو يغنِّ له ؛ إذ كانت أمه ــ بنت عثمان الخليفة المظلوم ــ أقلَّ منزلة عند عبد الملك من بنات عبس وتيم ويزيد بن معاوية !

ثم جمعت أطراف ثوبها ونهضت معجلة إلى مقصورتها ، لم تحىِّ أحداً أو تستمع إلى تحيته ، ونهض صواحبها كذلك فتفرقن فى حجراتهن !

* * *

ودخل مسلمة على أمه « ورد » ليشهد فى عينيها دموعاً حائرة ، فلا تكاد تراه مقبلا حتى ترسل دموعها وتطرق فى انكسار وحزن . . .

ــ ماذا بك يا أماه ؟

ــ لا شىء يا مسلمة !

ــ ولكنك تبكين يا أماه !

ــ لا تصدق كل ما ترى عيناك يا مسلمة !

ــ هل نالك أحد بمساءة ؟

ــ ومن ذا ينالنى بمساءة وأنا أم مسلمة وحظيَّة عبد الملك

أميرِ المؤمنين وسيدِ بنى مروان !
ـــ لعل أمير المؤمنين نفسه . . .
ـــ وكيف يسوءنى أمير المؤمنين وأنا ولدتُ له مسلمة ؟
ـــ فلماذا إذن تبكين يا أماه ؟
ـــ من أجلك يا مسلمة !
ـــ من أجلى ؟
ـــ نعم ؛ فلو لم ألدك لكنت اليوم ولىَّ عهد أمير المؤمنين ؟
ـــ لو لم تلدينى يا أماه لم يلدنى غيرك ؛ وما تطيب نفسى بغيرك أمًّا ولو كانت . . .
ـــ صه ! حسبك ما أوغرت من صدورهن عليك !
ـــ وماذا يوغر صدورهن على مسلمة وإنه ليحمل العبء كله عن أبنائهن ؛ فهو المدعوُّ لكل كريهة ، وعليه أعباؤها دون غيره من أبناء عبد الملك ، فلا تزال تتقاذفه الفلوات وأمواج البحر من مفازة مهلكة إلى ثغر مخوف ، ليمكِّن لعرش يتنازعه من لم يسلَّ سيفاً من غمده للدفاع أو يحمل راية !
ـــ من أجل ذلك بكيتُ لك يا مسلمة !
ـــ ولكنى سعيد يا أماه بما أبذل ، ولست أطمع ـــ ولا أريد ـــ أن أحمل أوزارها ، فليحملوا منها ما قدروا عليه ، وليدَعوا لى سيفى وفرسى ورايتى أجاهد فى سبيل الله !

ـــ تخادعنى يا مسلمة !

ـــ لا والله يا أمّ ؛ وإنى ليسعدنى أنك ولدتينى أكثر مما يسعدنى أن أبى هو أمير المؤمنين عبد الملك !

ـــ صدق حدسك يا مسلمة ! . .

ـــ ماذا ؟

ـــ لا شىء !

ـــ بل قلتِ شيئاً !

ـــ دع هذه يا مسلمة ولا تلحف !

ـــ تريدين أن تطوى عنى سراً . . .

ـــ نعم !

ـــ أىُّ سر ؟

ـــ السر لا يُسأل عنه يا مسلمة !

ـــ هو إذن سرٌّ يشين !

ـــ أخطأت وأسأت يا مسلمة !

ـــ وهل يكتم المرء من سره إلا ما يشين ؟

ـــ نعم ، وما يضرّ !

ـــ يضرنى أو يضرك يا أم ؟

ـــ يضرنى ويضرك يا مسلمة !

ـــ لم أفهم بعد !

ــ خير لك ألا تفهم !

ــ ولكن سرًّا تطوينه عنى وفيه مضرة . . . يثقل على ضميرى ويبلبل خاطرى !

ــ ليتنى لم أبدأ حديثاً معك يا مسلمة !

ــ ولكنكِ بدأت !

ــ ولكنى بدأت !

ــ ووقفتِ عند كلمة السر فطويتها عنى وتركتنى فى بلبلة !

ــ اسمع يا مسلمة !

ــ هيه !

ــ أنت يا بنىَّ صاحب اللواء فى هذه الدولة ؛ لا تزال تقود الجند لحرب الروم فتثخن فيهم قتلا وتجريحاً وأسراً ، حتى أرهقت الروم من أمرهم عسراً ؛ فهل تجد يا بنىّ راحة نفس فيما تفعل من ذلك ؟

ــ نعم يا أم !

ــ فكيف تصنع يا بنى إذا عرفت أن فى هؤلاء الروم خئولتك ؟

ــ قد عرفتُ ذلك منذ بعيد . . . أفهذا هو السر الذى تطوين عنى ؟

ــ نعم يا مسلمة !

ـ ليس ذاك . . .

ـ تريد أن أزيدك يا مسلمة ؟

ـ نعم !

ـ فاعلم ـ وعليك وحدك تبعة هذا العلم ـ أنك تركب من الأمر عظيماً فى حرب الروم !

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أنت تطلب رأس جدك !

ـ جدّى !

ـ نعم ، أبى . . .

ـ ولا تزالين تذكرين أباك يا أم ؟ . . .

ـ نعم ، كأنه بعينىّ منذ ساعات !

ـ واسمه !

ـ قسطنطين . . .

ـ كل رومىٍّ قسطنطين !

ـ ليس مثل أبى قسطنطين أحدٌ من الروم !

ـ أهو قيصر ؟

ـ كأنْ قد بلغ هذه المنزلة !

ـ ولم يبلغ بعد ؟

ـ لست أدرى ، فقد انقطع ما بينى وبين أبى منذ صرت إلى عبد الملك !

ـ وكان أبوك يومئذ . . .

ـ بطريقاً يؤهله نسبه وجاهه إلى العرش !

أطبق الفتى شفتيه وحدّق فيما أمامه وأمال رأسه إلى جانب وسبح فى أوهامه ؛ وجلست أمه بإزائه صامتة ترمقه بعينين فيهما حب وإشفاق ووجل .

وطال صمت الفتى حتى قلقت أمه ، فقالت فى حنان وعطف :

ـ لقد طوّفتَ بعيداً فى أوهامك يا مسلمة !

ـ نعم !

ـ وهل عدت ؟

ـ نعم !

ـ وماذا رأيت فى سرحتك يا بنى ؟

ـ رأيت أباك !

ـ جدّك ؟

ـ نعم !

ـ وقلت له . . . وقال لك . . .

ـ لم أستمع إلى قول منه أو يستمع إلى قول منى ! . . .

ــ تغاضبتما إذن ؟

ــ نحن متغاضبان منذ كنا . . . إننى أنا مسلمة بن عبد الملك وهو قسطنطين وحسب !

ــ ولكنه أبو أملك !

ــ قد كان ذلك يوماً ، أما اليوم فلستُ منه وليس منى !

ــ وإذن فلم يغير من رأيك شيئاً أن عرفتَ هذا السر ؟

ــ بل قد أجدّ لى عزماً جديداً . . .

ــ وما ذاك ؟

ــ أن لمسلمة بن عبد الملك حقًّا فى عرش القياصرة ، فسأحارب الروم منذ اليوم على عرش قسطنطين لأستخلصه لنفسى غير غاصب . . . بحق أمومتك !

ــ الآن طابت نفسى يا مسلمة !

ــ طابت نفسك بتقوبض عرش القياصرة من آبائك وآلك ؟

ــ ذلك شىء آخر !

ــ فماذا تعنين إذن ؟

ــ لقد كنت أخشى يا مسلمة ــ لو عرفت سر أملك ــ أن تطفأ فى قلبك جذوة الحماسة لحرب الروم ، وهى كل ما تملك يا بنىّ من أسباب المجد حين يتفاخر أبناء عبد الملك ؛ فالآن قد أمنتُ وطابت نفسى !

ـــ الحمد لله !

ـــ وسرٌ آخر لم يزل يحيك فى صدر أملك يا مسلمة . . .

ـــ ماذا يا أم ؟

ـــ ولا تغضب ؟

ـــ لن أغضب لما يرضيك يا أماه . . .

ـــ تنازعنى نفسى إلى القسطنطينية حيث نشأت !

ـــ تريدين أن أردّك إليها ؟

ـــ بل تردها إلىّ . . .

ـــ لست أفهم !

ـــ إننى آمل أن أجد ولدى مسلمة يجلس منها على عرش القياصرة ؛ ذلك حلمى القديم منذ كنت فتاة لم تدرك ؛ فقد علمتَ يا مسلمة أن بنات الروم ــ كبنات العرب ــ لا يحلمن حلماً أمجد ولا أسعد من أن تكون إحداهن أمًّا لقيصر ، وقد حسبت أنى وجدت تعبير رؤياى هذه حين ولدتك لعبد الملك ؛ أما وإخوتك كما ترى يتسابقون دونك إلى ولاية عرش أمية ، فإنى أرجو لرؤياى تعبيراً آخر رومياً لا يعرف من الملوك غير قيصر !

ـــ بل عرش قيصر وعرش أمية !

صه !

ـ ماذا ؟

ـ أخاف عليك كيد بنى مروان يا مسلمة !

ـ ولكن مسلمة لا يخاف يا أماه !

٦
ولى العهد

تغير كل شيء فى نظر مسلمة منذ ذلك اليوم الذى سابق فيه إخوته فى حلبة الخيل بين يدى أبيه فسبقوه ؛ وكأنه لم يدر إلا يومئذ أنه ابن جارية . . . فلتكن أمه تلك من بنات الملوك أو من بنات الملائكة ، فليست فى أعين الناس جميعاً إلا جارية !

ولم يقع فى وهم مسلمة قبل ذلك اليوم أن أباه قد يختاره لولاية عهده ويرشحه للجلوس على عرش الخلفاء فى دمشق ؛ فلو أن أباه اختار غيره من إخوته قبل ذلك اليوم لولاية العهد لما ثقل عليه ذلك ولا التمس السبيل إلى معرفة أسبابه ؛ أما اليوم فإن له فى نفسه وفى إخوته رأياً آخر . . . فقد وجد ندبة فى قلبه من حديث أبيه إليه بعد السباق ، ومما بلغه من حديث

زوجات أبيه بعضهن إلى بعض ؛ ولكن رأيه ذاك وما ناله من المساءة في حديث أبيه وحديث زوجات أبيه ، لم يغير موقفه من إخوته شيئاً ؛ فليكن العرش والتاج لمن شاء أبوه من إخوته ، أو من غير إخوته ؛ فليس يعنيه ذلك في شيء ؛ إنهم أحوج إلى مسلمة منه إليهم ؛ إنه سيف بني عبد الملك وحامل رايتهم في الجهاد وصاحب رأيهم في السلام ، رضوا أو سخطوا ؛ فليستأثروا دونه بعرش أمية ، فإن له عرشاً آخر في قلب كل عربي بين المشرق والمغرب ؛ وإنه ليأمل فوق ذلك أن يقتعد عرش جوستنيان في القسطنطينية ويتخذها دار هجرة ، فينزل في بلد خئولته ضيفاً على أبي أيوب الأنصاري ! . . .

* * *

لم يعد النعمان بن عبيد الله إلى دار أهله في الجزيرة منذ خرج ليطلب ثأر أخيه عتبة في بلاد الروم ؛ فقد اتخذ في اللاذقية داراً يأوي إليها كلما عاد من صائفة أو شاتية ؛ وما كان ليأوي إليها إلا أياماً أو أسابيع يعود بعدها إلى ما بدأ ، صائفاً أو شاتياً ؛ وكان له نكاية في العدو وصبر على القتال واستماتة في المعركة ، لا يقتحمها إلا وقد كسر جفن سيفه فلا يغمده إلا في اللبّات والصدور والجنوب ؛ وكان شعاره في الحرب : لبيك عتبة ! لبيك أبا أيوب ! وكم تعرّض للشهادة

فأخطأته وعاد مثقلا بالغنائم وفى كفه سيف بلا جفن يقطر دماً ، وكم احتز من رءوس وبقر من بطون وشقّ من مرائر ، ولكنه لم ينل مرة واحدة رأس بطريق من بطارقة الروم ثأراً لأخيه . . .

وتشيع بطولة النعمان بين القوم ، ويتحدث المشاة والركبان بأنباء معاركه المظفرة ، حتى تبلغ تلك الأنباء أمه وعشيرته فى أرض الجزيرة ، فتدمع عينا العجوز الثكلى ، وترفع يديها إلى الله ضارعة أن يكلأه ويرعاه ، ليكون خلفاً من أبيه وأخيه . . . وتهمس الشفاه باسمه فى ثغور الروم خائفة وجلة ، فتتعوّذ منه بالمسيح والعذراء . إنه لينال بالرعب من أعدائه أكثر مما ينال بسيفه !

وكان النعمان أثيراً عند مسلمة ؛ فقد شهد من ألوان بطولته ما أدناه إليه منزلة وقربه مجلساً ، وكان له عنده نفل مضاعف من أسلاب كل معركة !

وعاد النعمان ذات خريف من صائفته ليستقبل ضيفاً جديداً على الدنيا ؛ لقد وُلد له مولود ذكر ؛ ها هو ذا يستهل صارخاً يؤذن أباه بمقدمه ؛ ورنّ صراخه الأعجم فى أذن أبيه كأنما يسمع منه صائحاً يهتف فى المعركة : لبيك أبا أيوب ! فمال عليه يقبله فى المهد وهو يجيب : لبيك ! لبيك يا عتبة !

وصار اسم ذلكَ الصبي من يومئذ : عتيبة بن النعمان .

وكأنما خشى النعمان — وقد صار أباً — أن تكون أبوّته مجبنة مبخلة ، فاحتمل أهله وولده إلى الرقة حيث تقيم أمه وعشيرته ، وعاد معجلا إلى الثغر يتربص بالروم فى كل صائفة وشاتية ؛ وعاش الصبىّ بين جدته وبنى عمومته ، وخفّ أبوه إلى الميدان !

* * *

المعارك تتوالى بين العرب والروم ، والسفن العربية عليها الرايات البيض تغدو وتروح فى بحر الروم بين أقريطش وقبرص وأرواد وسواحل القسطنطينية ؛ ما أجدر هذا البحر الأبيض أن يسمى « بحر العرب » ؛ إن جند العرب لتحتل شاطئه الأفريقى والأسيوى جميعاً من المضيق إلى المضيق ، وما فيه من جزيرة إلا ارتفع فيها الأذان ورفرفت عليها الراية العربية ، وإن قوات الفتح لتوشك أن تثب من شاطئ إلى شاطئ فتبلغ القسطنطينية فى الشرق وجزيرة الأندلس فى الغرب، ثم تمدّ مدها حتى يلتقى جناحاها فى الأرض الكبيرة من أوربة ، فلا يكون على شاطئ هذا البحر من فوق ولا من تحت إلا نفوسٌ عربية مؤمنة تعج بالتكبير والأذان !

« حطموا هذه النواقيس العجماء ، وأقيموا المآذن يذكر

عليها اسم الله : الله أكبر ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ! »

واستجاب المسلمون للداعي ، وتفرقت جيوش المسلمين فى الأرض : محمد بن القاسم الثقفى فى الهند والسند يكتسح معاقل الكفر ويدعو إلى الله عُباد الوثن ؛ وقتيبة بن مسلم الباهلى فى خراسان وبلاد الترك يثخن فى الأعداء إثخاناً بليغاً وينشر اسم الله فى هذه البرية الشاسعة بين الصين وجبال القبج ، وموسى بن نصير اللخمى يحاول خطة لم يحاولها عربى قبله ، فيجهز مولاه طارق بن زياد لفتح أوربة ؛ ومسلمة بن عبد الملك ومحمد بن مروان ومن معهم من أبطال البر والبحر يضيقون الحصار على قصبة بلاد الروم فيتهاوى ما يليها من المعاقل معقلا بعد معقل حتى توشك مدينة قسطنطين الأكبر أن تدين بالولاء والطاعة للخليفة فى دمشق !

ولكن الخليفة قد تقدمت به السن ويوشك أن يدركه أجله ، وهو لا يريد أن يترك هذه الدولة طعمة للطامعين يتنازعون حول العرش حتى تذهب ريحهم وتقتلعهم العاصفة فترمى بهم إلى البادية حيث بدأوا الزحف منذ بضع وثمانين سنة ؛ ويرى عبد الملك أن يختار ولى عهده ليبايع له قبل أن يموت ؛ فتخفق القلوب حوله وتطمح الأعين إليه . . .

ويرى عبد الملك رؤيا ، ويبعث إلى المدينة من يقصها على

سعيد بن المسيب يسأله تاويلها ، ويقول سعيد لرسول عبد الملك : قل له إن أربعة من بنيه سيلون هذا الأمر ؛ فليحسن إعداد بنيه لاحتمال تبعاتها !

وتشرئب الأعناق إلى قصر الخلافة ، وتصطرع المطامع في نفوس بضعة عشر ولداً من أبناء عبد الملك ؛ وفي نفوس بضع عشرة من زوجاته وأمهات أولاده .

أيجعل العهد لأربعة من ولده ؟ ومن يكون هؤلاء الأربعة ؟ . . . ما أحرى هذا أن ينشىء العداوة والبغضاء بين بني أب واحد ؛ وما يدريه ما ترتيب آجالهم في لوح القدر وإن أسنانهم لمتقاربة ؟

لا ، فليدعْ سعيد بن المسيب يعبر الرؤيا على أي وجه شاء ، وليدبرْ هو أمره على ما يرى ؛ لقد استأثر الله بالغيب فلم يُطلع عليه أحداً من خلقه !

فليولِّ عهده واحداً وحسب ، وليأخذ له البيعة من إخوته ؛ فإن ذلك حقيق بأن يُبقى على وحدتهم ورأيهم ؛ وليكن ولي عهده الوليد . . .

ولكن أخاه عبد العزيز بن مروان يطمع أن ينالها ، وقد أوصاه به أبوه قبل مصرعه ؛ فما أحراه أن يحفظ وصاة أبيه في عبد العزيز ، ليحفظ بنوه وصاته !

فلتكن ولاية العهد إذن ، للوليد بن عبد الملك وعمه عبد العزيز بن مروان جميعاً !

ولكن عبد العزيز لا يلبث أن يجيء نعيه من مصر ، وتنحل العقدة المستعصية ، فيجعل عبد الملك عهده من بعده لولديه : الوليد ثم سليمان ، ابني ولادة العبسية !

وتم البيعة للأميرين ، ويحلف لهما بنو مروان وبنو أمية جميعاً ، ثم تؤخذ لهما البيعة من الأمصار . . .

ويُؤوى عبد الملك إليه أولاده ليقول لهم :

« يا بني عبد الملك ، أوصيكم بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجنة واقية ؛ وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير منكم حق الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذ بجميل الأمور ؛ وإياكم والفرقة والخلاف ؛ فبهما هلك الأولون ، وذل ذوو العز المعظمون . وانظروا مسلمة ، فاصدروا عن رأيه ؛ فإنه نابكم الذى منه تعبرون ، ومجنكم الذى به تستجنون ؛ وكونوا بني أمّ بررة ، وإلا دبت بينكم العقارب ؛ وكونوا فى الحرب أحراراً ، وللمعروف مناراً . . . »

ثم يقبل على ابنه الوليد فيقول :

« لا ألفينَّك إذا مت تعصر عينك وتحن حنين الأمة ، ولكن شمّر واتّزر ؛ والبس جلد النمر ؛ ودلني فى حفرتي وخلني

وشأني وعليك شأنك ، ثم ادع الناس للبيعة ؛ فمن قال هكذا ، فقل بالسيف هكذا . . . »

ثم يغمض عبد الملك جفنه !

٧
راهب البلقاء

ويجلس الوليد بن عبد الملك على عرش بنى مروان فى دمشق ، وتستمر الفتوح شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ؛ ويشرع الوليد فى بناء مسجد دمشق ، ومسجد الرسول بالمدينة ، ويأخذ فى تعمير المرافق ، وإعانة الزمْنى ، وتأمين المحتاجين وذوى الخلة ؛ ويتردد اسم الوليد بين أربعة أقطار الأرض . . .

وتقول ورد لولدها مسلمة :

ــ كيف رأيت أخاك الوليد على العرش يا أبا سعيد ؟

ــ رأيت خيراً يا أم ، لو وفى لأخيه سليمان !

ــ ماذا ؟

ــ أحسبه يا أمّ يحاول خلع أخيه من ولاية العهد ليجعلها لولده !

ـ وعهد أبيه ووصاته له ؟

ـ لقد همَّ أبوه أن يغدر بأخيه عبد العزيز لولا أن عجل إليه أجله ؛ فما أجدر الوليد أن يغدر بسليمان !

ـ إلا أن يعجل إليه أجله !

ـ من تعنين يا أماه ؟

ـ لم أعنِ أحداً ... فليختر القدر !

ـ ولكن سليمان حقيق بأن يليها !

ـ كلاهما أخوان لأب وأم !

ـ ولكن راهباً فى دير منعزل من أرض البلقاء أنبأنى . . .

ـ ماذا أنبأك ؟

ـ قال إن سليمان سيليها ، وسيفتح الله عليه بلاداً لم تطأها من قبلُ قدم عربى !

ـ أى بلاد حدست ؟

ـ القسطنطينية . . .

ـ أكذلك تظن ؟

ـ نعم !

ـ مرادك بعيد يا مسلمة ، فما دامت هذه الأسوار ، وتلك الحصون ، وهذه النار الرومية التى يقذفونها على الغزاة فما تدع من شىء إلا جعلته فحماً أو تراباً ـ فلست آمل أن

تفتح عليكم حاضرة الروم من ذلك الطريق !

ــ ولكننا سنأخذ عليها كل طريق ، ونسلك إليها سبيل البحر والبر والسهل والجبل ، من الشرق والغرب ، ومن الشمال والجنوب ؛ فلا تجد متنفساً ولا تملك إلا التسليم !

ــ أى شمال وجنوب وأى شرق وغرب ؟

ــ لقد وطئ جيش العرب جزيرة الأندلس يا أماه ؛ فما أسرع ما تنثال جيوشهم فى الأرض الكبيرة زاحفة نحو الشرق ؛ فيقتحمون على القسطنطينية أبوابها من الغرب ؛ وقد ملك قتيبة بن مسلم من أقصى بلاد الترك إلى جبال القبج وبحر بنطش « البحر الأسود » ، فما أسرع ما يثب من البحر إلى الساحل ؛ وهذا جيش مسلمة لا يزال يراوحها ويغاديها من البر والبحر ؛ فهل ترين لها خلاصاً بين هذه القوات الأربع ؟

ــ ويجلس مسلمة على عرش قسطنطين ؟

ــ ويجلس مسلمة على عرش قسطنطين ، ويحقق لأمه أمنية ، ويدع أبناء عبد الملك يتصارعون على عرش أمية !

ــ وتكبت عدوّى وعدوك يا مسلمة ؟

ــ ويبلغ عدوى وعدوك من هوان الشأن ما لا يحمل أحداً على التفكير فى أمره !

* * *

كان الإسلام فى ذلك العهد ، ديناً خالصاً لله ، كأول عهد المسلمين به يوم نزل ، لم تدخله خرافة ولم يغلب عليه باطل ولم يبتدع فيه مبطل حدثاً ؛ إلا بعض ميراث الجاهلية فى العامة من الإيمان بالنجوم والتماس علم الغد عندها ، وإلا مطمع بعض الخاصة فى صدق الرؤيا والهاتف وحدس النفس المؤمنة ، فقد حدثهم من حدّث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الرؤيا بضعة من النبوة . وإلا بعض ما ألهمتهم آيات من القرآن الكريم عما يتوارثه بعض أهل الكتاب من علم عن الغد يجدونه مكتوباً عندهم فى الإنجيل والتوراة ، فهم يلتمسونه عند الرهبان المنقطعين للعبادة فى الأديار والبيع المنتشرة فى أرض البلقاء ووادى الأردن وأرباض الشام وأطراف الجزيرة ؛ وإلا ما أحدثه بعض الفرق الإسلامية الناشئة مما يسمونه علم الملاحم ويسندونه إلى فلان إلى فلان إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ويزعمون أن فيه علم الغد كله مكتوباً فى « جفر » على سبيل الرمز والإيماء فلا يحل طلسمه إلا من أوتى حظاً من علم !

وكان إيمان الناس فى ذلك العهد بهذه المستحدثات يختلف باختلاف بيئاتهم وميراثهم العقلى وحظهم من فهم الإسلام .

ولكن كل نفس تستشرف إلى معرفة ما استسرّ فى غدها من غيب الله ؛ فلا عجب أن نرى — فى مثل ذلك العهد — طائفة من أهل التميز والبصيرة لا تستنكف من غشيان الأديار وصوامع الرهبان تسألهم بعض ما عندهم من علم الغد !

وكذلك رأى مسلمة بن عبد الملك نفسه مسوقاً ذات يوم إلى دير من هذه الأديار يسأل راهبها بعض ما عنده ، وكان يصحبه فى سرحته تلك مجاهد من أهل اللاذقية اسمه النعمان بن عبيد الله . . .

قال مسلمة للراهب :

— يا شيخ ، هل تجدون فى كتبكم ما أنتم فيه ونحن ؟

— نعم ، نجد ما مضى من أمركم وما أنتم فيه وما هو كائن !

— أفسمّى أم موصوفاً ؟

— كل ذلك موصوف بغير اسم ، واسم بغير صفة !

— فهل ترى من صفتى وصفة صاحبى هذا عندك ؟

— أمير يعزف عن الإمارة ، أو تعزف عنه الإمارة ؛ ينزع به عرق ، ويجذبه عرق ؛ جرادة صفراء ، تحت رايه بيضاء ؛ يُفتح به لغيره ولا يُفتح له ، عن يمينه على العرش أربعة ، وعن يساره أربعة ؛ يدنو حتى يكون قاب قوسين ،

فيقف بين بين ، ثم يفلتها بعد الأين ؛ بينه وبين ما يأمله مئتان ومئتان وثلاثمئة ؛ ثم يكون ما أراد ، حين لا متاع له بشيء من ذلك الزاد ، إلا عين جارية ، وسيرة باقية ؛ ويُذكر أبو أيوب ، وأبو سعيد ، ومحمد بن مراد ! . . .

ـ وهذا الخليفة الجالس على العرش ؟

ـ اسم صبيّ وما هو بصبيّ ، ترمقه العيون ، وتتوهمه الظنون ، وهو مما يراد به فى حرز مصون ؛ يُعلى البناء ، ويوسع الفناء ، ويجزل العطاء ، ويلد النجباء ، ثم يمضى كما جاء ؛ ويخلفه ملك له اسم نبيّ ، ووجه وضيّ ، تُفتح عليه بلاد لم يسلكها بدويّ ، ولم تطأها قدم عربىّ ؛ يا سليمان ابن داود ، ارفع الغطاء عن المائدة للضيفان ، إن للمأدبة موعداً قد حان ! . . .

وصمت الراهب برهة وأطرق ، ومال مسلمة على أذن رفيقه يسرّ إليه ، ثم رفع الراهب رأسه يقول :

ـ وصاحب بالجنب ينشد ضالة ، والضالة تنشد ناشدها ؛ والباب بين الناشد والمنشود عليه قفل ورتاج ، وستر من ديباج ... أيها الصبيّ ، أيتها الجارية ، إن لكما وراء هذا الباب عمومة وخئولة ؛ اختلط الدم بالدم ، وتدسّس العرق إلى العرق ؛ ويلك لو انكشف المخبوء وانهتك الستر وأزيح النقاب ؛ لقد

نذرتَ نذراً ونذرت المقادير نذراً ، فأوف بنذرك ، أو تجاوز عن ثأرك ، فستبلغ المقادير غايتها برغملك ، ويشهد الأمير ضاحك السن عاقبة أمره وأمرك ؛ فيحدب على الوليد ، ويترحم على الشهيد ، ويصل رحم القريب والبعيد !

وتفصَّد جبين الشيخ عرقاً كأنما كان يمتح على رأس بئر ، ثم تنفس نفساً عميقاً كأنما خرج من جب ، وراح يقلب عينيه بين الأمير وصاحبه صامتاً ، والأمير وصاحبه يتبادلان نظرات لا تكاد تُفصح عن معنى !

وقال الأمير لصاحبه وقد أخذا طريقهما إلى المدينة :

ـ هل فهمت مما وصف الراهب شيئاً يا أبا عتيبة ؟

ـ قليلا يا مولاى وغاب عنى الكثير !

ـ أفتدرى ما المئتان والمئتان والثلاثمئة ؟

ـ أحسبه يعنى الذين يستشهدون منا قبل أن تدين القسطنطينية بالفتح !

ـ أكذلك تزعم ؟

ـ وماذا تكون هذه السبعمئة إلا ذلك ؟

ـ ظننته يحصى الأيام ، أو الأسابيع ؛ فإن كان ذلك فإن بيننا وبين الفتح عامين ، أو أربعة عشر عاماً . . .

ـ أو بضعة وخمسين !

ــ وى !

ــ بلى ، فما أراه ــ إن كان يحصى الأزمان ــ إلا حاسباً حساب الأهلّة ، لا الأسابيع ولا الأيام !

ــ ذلك كثير يا أبا عتيبة !

ــ ولكنه فى عمر الدول قليل يا مولاى !

ــ أخطأ حدسك يا نعمان : فإنى لأزعم أن سيكون ذلك فى عهد سليمان ؛ وتُفتح عليه بلاد لم يطأها عربى ؛ أفترى سليمان يعمَّر بضعاً وخمسين !

ــ أفذلك قوله يا مولاى لابن داود : « ارفع الغطاء عن المائدة للضيفان » !

ــ ظننته كذلك !

ــ لقد كان لسليمان بن داود يا مولاى ملك لا ينبغى ــ فى بنى إسرائيل ــ لأحد من بعده ؛ فما أحرى هذا أن يكون بشرى لسليمان بن عبد الملك أن تفتح عليه كنوز الدنيا !

ــ ويكون اللواء فى يدى يا أبا عتيبة !

ــ ويكون أبو عتيبة فى ظل لواء الأمير !

ــ ونبلغ عرش قسطنطين الأكبر ، ونطأ بساطه ، ونحطم صلبانه ؛ وأدفع إليك عشرة من بطارقته تحتز رءوسهم ثأراً لأخيك !

ــ سيدى !

ــ ماذا يا نعمان ؟

ــ لقد تحدَّث الراهب عن الضالة وناشدها حديثاً لم أعه !

ــ أفلم يقل إننى سأشهد عاقبة أمرك ضاحك السن ؟

ــ بلى . . .

ــ فماذا يعنيك من سائر هذيانه وخلطه ؟

ــ أتراه يهذى ويخلط يا مولاى ؟ فلماذا يَصدق فى الحديث عنك ويخلط فى الحديث عنى !

ــ أفظننت هؤلاء الرهبان يا نعمان يصدقون فى كل ما يحكون ؟

ــ ولمَ لا . . . ؟

ــ فهبهم قد علموا من كتبهم غيب الملوك والأمراء ؛ فمن أين لهم غيب سائر الناس ؟

ــ وماذا يحمله على أن يكذب ؟

ــ ذلك يا نعمان كل ما بقى فى أيدى هؤلاء القساوسة من الجاه فى هذه البلاد بعد أن أظلها الإسلام ؛ أفتحسبهم ينزلون طائعين عن هذا الجاه فيقولون لبعض العامة : لا ندرى !

ــ قد فهمت !

ـ بل لا تزال بعيداً عن الفهم !

ـ ماذا ؟

ـ أريد أن أقول لك إني لم أصدِّق حرفاً واحداً من حديث ذلك الراهب الشيخ ، وما قصدته مؤمناً مصدقاً ، وإنما أردت أن التمس إلى التسلية سبباً وأنشد راحة نفس ؛ فدع عنك حديثه ذلك كله كأن لم تستمع إليه ولم تجلس بين يديه !

ـ قد سمعت !

ومضيا عائدين من الدير قد أطبقا شفاههما ؛ لم يتحدث واحد منهما إلى صاحبه بعد ذلك الحديث ؛ ولكن لكل منهما مع نفسه حديثاً ضافي الذيول !

٨
بارقة أمل

لم تكن أم النعمان تعرف أن ولدها اتخذ زوجاً ، إلا يوم عاد إليها بعد غيبة دامت سنين يصحبه ذلك الطفل وأمه ؛ أما الطفل فقد عرفته ، إن فيه مخايل من أبيه وإن لم يزل رضيعاً في لفائفه ، وإن اسمه عتبة ، أو عتيبة ، وما أحبه اسماً إلى

قلبها ؛ إنه ليذكّرها بعمه عتبة بن عبيد الله الذى ذهب منذ سنين ولم يعد فلا تدرى أفى الأحياء هو أم فى الموتى ؟ فليكن هذا الصبى خلفاً من عمه الذى طواه الغيب فى ظلماته ، وذكرى دائمة لأبيه الذى قطعه الغزو عن لِداته ورماه فى البحر والفلوات لا يكاد يستقر فى بلد أو يهدأ على ظهر سابحة !

ولكن من تكون أم هذا الغلام ؟ من أى بلاد العرب وإلى أى بطونهم تنتمى ؟ إنها لنحيلة ممشوقة ، فى عينيها زرقة ، وفى خديها شحوب ، ولحديثها نبر عذب ، وفى يدها إشارة لطيفة ، ولها حظ من علم وأدب وظرف لم يحصّل مثله كثير من بنات العرب ؛ كل ما تعرف أم النعمان عن كنّتها هذه الجديدة أن اسمها سبيكة ، وأنها أم ذلك الصبى العزيز عتيبة ابن النعمان . . .

أعربية هى أم مولدة ، أم فتاة جلبها ولدها من السباء أو من سوق الرقية فى بعض بلاد الشام ؟ أزوجة هى أم هى أمّ ولد ؟ ليس يدرى أحد ، ولكنهم جميعاً يعطفون عليها ويأنسون إلى حديثها ويسارعون إلى مرضاتها ؛ لا يسألونها عما لا يعرفون من خبرها ، حفظاً لغيب صاحبها ؛ ولا تحدثهم هى مبتدئة عما يريدون أن يعرفوا ، حفظاً لغيب نفسها . . .

وتعاقبت الأعوام وسبيكة تعيش فى ظل الحنان والعطف من حماتها وسلفتها وأخوات زوجها وولد أخيه ، لا تكاد تحس أنها غريبة فى هذا الجو الجديد عليها ولا يكادون يحسون !

ولم ينس النعمان بن عبيد الله أن له زوجاً وولداً ، فكان يلمّ بالرقة حيناً بعد حين ، كلما وجد فسحة من الوقت بين صائفتين ؛ فيقيم بين أهله أياماً قليلة ثم يرحل . . .

وشب عتيبة بين فتيان الحى وفتياته ، قد آخى ابن عمه بشيراً وأخته نوار ؛ فكأنما جمعتهم أمومة واحدة وأبوة . وكذلك مضت الحياة بهذه الأسرة كما تمضى بكل الأسر فى ذلك البلد ، لم ينكر أحد من أمرها شيئاً ولم تنكر من أمر نفسها ؛ قد غاب رجلها فى الغزو والجهاد كما يغيب رجال كُثرٌ فى مثل تلك السنين عن زوجاتهم وأهليهم ، واحتملت الأسرة غيبته راضية كما تحتمل أسر كثيرة فى مثل تلك السنين غيبة رجالها راضية ؛ بلى ، كان فى هذه الأسرة رجلان صغيران ، هما عتيبة بن النعمان وبشير بن عتبة ، ولكنهما طفلان وإن بدا لهما — من مكانتهما فى الأسرة — أنهما رجلا الأسرة وعليهما لها مثل تبعات الرجال !

* * *

وكانت الصوائف والشواتى ما تزال غادية رائحة بين

الثغور فى البر والبحر ؛ عليها من أصحاب مسلمة رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، لم يخرجوا فى هذه الرحلات المتتابعة لاهين ولا هازلين ، قد وطنوا أنفسهم على الظفر فى كل غارة يغيرونها أو يستشهدوا ؛ منهم النعمان بن عبيد الله الرَّقّى ، ومنهم أبو محمد الأنطاكى ، ومنهم عبد الوهاب بن بخت ؛ ثلاثة لا يزال صدى أسمائهم يتردد فى بلاد الروم مخيفاً مفزعاً ، يرعب الصغير ، ويؤرق الكبير ، ويقض مضاجع النُّوَّام ؛ فإن الأم فى ثغور الروم ليذنب صغيرها أو يبكى فتريد تأديبه فتقول له : اسكت أو أدفعك إلى الأنطاكى ، أو ابن بخت ، أو النعمان ! فيكف الصغير عن بكائه ويستغفر من ذنبه !

وكانت صيحتهم فى الحرب : لبيك أبا أيوب ! فكأنما ترددها وراءهم — حين يلفظونها — أواذى البحر وصخور الجبل ، وتنداح فى سهول البادية صدى متصل الرنين يفزع ويرهب ويقطع علائق القلوب !

وكانوا يحملون فى الحرب سيوفاً بلا أغماد ، إذ كانوا لا يخرجون بها من المعركة إلا محطمة من طول الضِّراب !

وجلس ثلاثتهم ذات ليلة من ليالى العطلة فى بعض مضارب الجند يسمرون ، كعادتهم كلما سكن غبار الحرب ، وأخذوا فى لون من ألوان المفاخرة بما أتوا من أعمال البطولة فى حرب

الروم ، فراح كل منهم يحصى ما فى جسده من آثار الجراح ، لا يكادون يستقصونها إحصاء وعدًّا ؛ وبدا أبو محمد الأنطاكى أكثرهم آثارَ جراح ، فقال له عبد الوهاب بن بخت معجباً :

— لله ما أبليت يا أبا محمد فى سبيل الله ، إنك لبطل !

قال النعمان :

— إنه لأعلى منزلة مما تصف يا أبا عبيدة ، إنه لبطّال !

وضحك الثلاثة ضحكاً عريضاً ترددت أصداؤه فى مضارب الجند ، وصار ذلك اسم أبى محمد الأنطاكى من بعد ، لا يكاد يعرفه أحد إلا باسم أبى محمد البطال !

وقال أبو محمد ولم يزل يشرق بضحكته :

— لقد أذكرتمانى أمراً حانت مناسبته ، فقد كنت بأنطاكية ذات يوم من سنة ٧٠ ، وقد زحف الروم بجحافلهم يلتمسون غِرَّة عبد الملك ، حين اشتغاله بحرب ابن الزبير وتوقِّى مكايد عمرو بن سعيد ومقاومة الخوارج ؛ وبدا للروم كأنما دانت لهم أنطاكية وانفتح البر ، ولم يكن ثمة جيش للعرب يصد غاراتهم ، واستضعف المسلمون فأوى منهم من أوى إلى داره وفرّ من فرّ إلى خارج المدينة ، ورأيتنى ذلك اليوم بغتة بين كوكبة من جند الروم يسوقون فى الجبال ثلاثة أسارى من العرب ، وليس معى إلا سيف مفلول قد تحطم من كثرة

الضراب ، وهتف بى الأسارى فى أغلالهم يطلبون النجدة :

— إلينا يا أخا العرب !

وثارت حميتى ، فحملت فرداً على الجماعة بسيفى المسلول ، لم أحفل بما تنال سيوفهم من لحمى ، وقصدت إلى الأسارى أريد أن أخلّصهم من أيدى القوم ، وتوالت علىّ الضربات لا أكاد أحس وقعها على جسدى ، وأوشكت أن أخلّص الرجال ، بعد أن جندلت فى طريقى إليهم بضعة نفر ؛ وهتف أحد الأسارى بصاحبيه : أبشر عتبة ! أبشر سعيد ! وهتف آخر منهم وهو يشير بيده إلى جانبى فزعاً : فديتك يا بطال ! ونظرت إلى حيث كان يشير ؛ فإذا رومى فى زى بطريق قد رفع سيفه على رأسى ؛ فهممت أن أخلى للضربة القاصمة ، ولكن سيفه نالنى . . .

ثم كشف أبو محمد عن كتفه فإذا أثر ضربة غائرة فى حبل العاتق مما يلى العنق . . .

واستأنف أبو محمد :

— فذلك أول ما سمعت كلمة « البطال » !

كان النعمان يسمع ذاهلا قد اختلجت شفتاه وحال لونه ، فلم يكد يسكت أبو محمد البطال حتى ابتدره سائلا فى لهفة :

— وماذا صُنع بالأسارى ؟

— لست أدرى ؛ فقد أعجلتنى ضربة قسطنطين عن

تخليصهم ، فنجوت من الموت ولم أكد !

ـــ مَن قسطنطين ؟

ـــ ذلك البطريق الذى نالنى بتلك الضربة ؛ لقد لقيته بعدها فى بعض الصوائف ، وعرفته وعرفنى ، ولكنه أفلت من يدى ، ولابد أن أناله يوماً ! . . .

ـــ والأسارى ! . . .

قال البطال مستخفاً :

وما عنايتك هذه بهؤلاء الأسارى وقد مضى زمان ؟ وكم بين العرب والروم من قتلى وأسارى !

ـــ قد قلتَ إن عتبة كان أحد هؤلاء الثلاثة ؟

ـــ ومن عتبة هذا ؟

ـــ إنى لأظنه أخى !

ـــ أخاك ؟

ـــ نعم ، فقد خرج للغزو منذ ذلك التاريخ فلم يعد ؛ ولم تكن صوائف ولا شوات يومئذ ؛ فقد كان عبد الملك فى شغل عن الصوائف والشواتى بحرب الخوارج !

صمت البطال برهة وهو يحدق فى وجه صاحبيه ، ثم قال موافقاً :

ـــ قد يكون إياه . . .

وكان عبد الوهاب بن بخت صامتاً ، يستمع إلى ما يدور من الحوار بين الرجلين فى اهتمام ؛ ثم عقّب :

ـ بل إنى لأرجو أن يكون إياه !

فالتفت إليه النعمان قائلا وقد شاع فى وجهه الأمل :

ـ عندك ما تقول يا أبا عبيدة !

ـ نعم ، فقد كان أحد الثلاثة سعيد بن جنادة ، وقد خلص بهم الروم إلى البحر ، فاحتملوهم أسارى على ظهر سفينة رومية ، ولكن ابن جنادة التمس غرة من القوم فألقى نفسه من السفينة بعد ما أبعدت عن الساحل ، فبلغ البر سابحاً . . . وقد لقيته فحدثنى . . .

ـ بماذا حدثك ؟ .

ـ قال : إن أحد صاحبيه اسمه عتبة الرّقى . أليس بلدك الرقة يا أبا عتيبة ؟

ـ بلى ، وماذا قال غير هذا ؟

ـ لم يحدّثنى عنهما أكثر من ذاك ؟

ـ وأين ابن جنادة هذا ؟

ـ مات تحت أسوار ملطية ! . . .

ـ مات ؟ . . .

ـــ نعم ، وإنى لأرجو أن يكون أخوك حيـًّا فتلقاه ويحدثك الخبر !

ـــ ليت الأمانى تصدق يا أبا عبيدة !

* * *

وخلا النعمان إلى نفسه يفكر فى أمره . . . هل تصدق الأمانى ؟ وهل يرى أخاه حيـًّا فيحدثه ويستمع إليه ؟ ولكن، أين . . . ؟

وهرول عائداً إلى أبى محمد البطال يستزيده :

ـــ لقد قلت يا أبا محمد إن البطريق الذى نالك بسيفه فى معركة أنطاكية ، اسمه قسطنطين ؟

ـــ نعم !

ـــ وإنك لقيته بعدها فى بعض المغازى فعرفته وعرفك ؟

ـــ نعم !

ـــ أفلست تظنه يعرف ما آل إليه أمر هؤلاء الأسرى ؟

ـــ أظن . . .

ـــ فإنى أريد أن ألقاه !

ـــ من ؟

ـــ قسطنطين البطريق !

ـــ كل رومىٍّ قسطنطين يا أبا عتيبة ؛ فهل تظننى أذكر

كل ما مر بى من الصور والحوادث على تعاقب السنين ؟

ــ أفلست تذكر أين لقيت قسطنطين هذا فى الغزاة الثانية ؟

ــ لست أذكر !

ــ ولكنه يعرف من أنباء أخى ، فأين ألقاه إذن ؟

ــ فى بعض المعارك !

ــ ماذا ؟

ــ أعنى لابد أنك ستلقاه فى معركة قابلة ، فإنه رجل جِلاد فيما يبدو ؛ هذا إذا لم يكن قد مات !

ــ أتظنه مات ؟

ــ وماذا يمنع ؟ لقد كان يوم أنطاكية ــ فيما بدا لى ــ شيخا قد جاوز الخمسين ، فإن لم يكن قد لقى أجله فى بعض المعارك فقد جاوز اليوم سن الموت !

ــ وا أسفاه !

ــ تأسف على موت عدوك وعدو الله !

ــ بل آسف على أخى وما غاب عنى من خبره !

ــ إنك لتسرف فى الأمل يا أبا عتيبة إسرافاً يوشك أن يفلّ عزمك عند أول صدمة فيُقطع بك ؛ فهل استيقنت يقينا لا شبهة فيه أن ذاك أخوك ، فكم فى العرب من « عتبة » ، وكم عربى اسمه « الرقى » ولم يدخل الرقة أو يرها بعينين ؛ فمن

أين لك اليقين بأن ذاك أخوك ؟

ـ إلا يكن أخى لأبى وأمى فإنه أخى فى الدين والنسب !

ـ صدقت ، وإنه لأخى كذلك ، وأخو كل مسلم وعربى !

ـ فستحرص إذن منذ اليوم يا أبا محمد على ما أحرص ، فتلتمس لأخيك عتبة أسباب الحرية ؟

ـ نعم ، ولكل عربى فى أسر الروم ، وأطلب ثأر القتلى بكل رأس رأسين !

ودوى النفير فهب المسلمون إلى أسلحتهم ؛ وترددت فى مضارب الجند أصوات الملبِّين ؛ وهبَّ النعمان معهم إلى سلاحه وهو يلبى :

ـ لبيك عتبة ! لبيك أبا أيوب ! الله أكبر !

٩

نداء الدم !

ـ يوشك حديث الراهب أن يكون حقًّا !

كذلك قال النعمان لنفسه ؛ ألم يقل ذلك الراهب إن

صاحبًّا بالجنب ينشد ضالة ؛ والضالة تنشد ناشدها ؟ . . .
فذانك هو وأخوه ؛ ولكنه يريد أن يعرف أين تنتهى القصة ،
وما ذلك الباب عليه القفل والرتاج وستر الديباج ، ومَن ذلك
الصبي وتلك الجارية ، وما تلك العمومة والخئولة واختلاط
الدم بالدم وتدسُّس العرق إلى العرق ؟

ليته يعود إلى ذلك الراهب فيسأله أن يوضح له ما غمض
من هذه الأحاجى ؛ إن الرهبان ليعرفون كثيراً من غيب
الخاصة وغيب العامة على السواء ؛ وما أنصف مسلمة حين
وصف ذلك الراهب بما وصف ورماه بالهذيان والخلط ! . . .

وطوَّح الخيال بالنعمان إلى مرامى بعيدة ؛ وطوَّف حالماً
بين ما يعرف من ثغور الروم يتحسس آثار أخيه ؛ ثم آب
من رحلته تلك مكدود الذهن ضيق النفس خائر العزيمة ، لقد
كان قبل اليوم يجاهد مستميتاً ليدرك ثأراً أو يظفر
بالشهادة ، أما اليوم فإن له هدفاً آخر . . . ليس فى نفسه
اليوم إلا صورة أخيه الذى يزعم أنه لم يزل حيًّا فى الأسر عند
بعض بطارقة الروم ، وليس له أمنية إلا أن يصل إليه فيستنقذه
فيرده إلى أمه وزوجه وولده !

والتفت خاطره إلى الذين يقيمون فى الرقة من أهله ؛ إن له
ثمة زوجاً وولداً يعيشان بين أمه وزوج أخيه وولديه ، لا يكاد

يطرقهم زائراً حتى يؤذنهم بالفراق ؛ وقد مضى عامان منذ آخر زياراته لهم فلم يرهم ولم يروه منذ ذلك الحين ؛ كيف صار ولده عتيبة اليوم ؟ وما شأنه وشأن ابن عمه بشير بن عتبة ، وأخته نوار بنت عتبة ، تلك الدُّمية الصغيرة الضاحكة أبداً كأنما يُصبحها أبوها ويمسيها بالمزاح والدعابة والطرائف المجلوبة ؛ وأبوها أسير فى حصن من حصون الروم لم تره قط ولم يرها . . .

وعاد يذكر أخاه عتبة . . .

وتخيل كأنما لقيه بعد أين ، فاعتنقا ، وتذاكرا الماضى طويلا ، واصطحبا على الطريق إلى الرقة حيث يقيم بشير ونوار وعتيبة وجدّتهم العجوز وامرأتان أخريان قد فارقهما زوجاهما منذ بعيد ، فلا هما زوجتان ولا أرملتان !

ويرى عتبة بن عبيد الله ابنته نوار ، عروساً فاتنة ضاحكة السن أبداً ، فيسأل : من هذه ؟ فيضمها عتيبة بن النعمان إليه ويقول : هذه لى !

وتضحك امرأتان ورجلان وتمتلىء قلوبهم غبطة ومسرة ، ويحقق عتبة بن عبيد الله لابن أخيه ما أراد ، فيزوجه نوار ؛ ويعود الأنس إلى تلك الدار الموحشة !

ثم يستيقظ النعمان من حلمه ذلك ؛ فإذا هو فى خيمته منبطح على فراشه وإلى جانبه سيفه وترسه ؛ ويفىء إلى الحقيقة

بعد مشوار طويل فى وادى الأحلام ؛ ويهمّ أن ينهض فتجاذبه الأرض . إن الأمانى مكسلة مجبنة . . . ولكنه لابد أن ينهض ، فإن الجند فى الميدان لا يؤذن لهم أن ينبطحوا على الأرض طويلا وينسرحوا فى الأحلام من واد إلى واد . . .

* * *

كانت الدولة حتى ذلك اليوم عربية خالصة ، وكانت عصبية الأبوة والأمومة وخلوص العرق من هُجنة الدم ، هى السياسة ومدار التدبير فى الدولة ؛ فليس للموالى ولا لأبناء الجوارى ولا لمسلمى الأمصار المفتوحة ، جاهٌ فى الحكم ولا مطمع فى الرياسة ولا اعتبار عند الأمراء ولا عند السوقة ؛ وكان الخلفاء مع ذلك يؤثرون الروميات والصقلبيات وبنات الترك والعجم والمجلوبات السود أحياناً ، على الحرائر من بنات العم والخال ؛ فيتخذونهن للفراش والخدمة وسياسة القصور ومجالس الأنس والمسرة ؛ ولكنهن إن يلدن فليس أولادهن فى اعتبار آبائهم إلا أبناء جوار وإن كانوا فى الذروة من الفضائل والحكمة وسياسة الأمور والشجاعة فى الحرب ؛ وكان أبناء العامة والخاصة من جواريهم فى مثل هذه المنزلة كذلك عند آبائهم وإخوتهم وبنى عمومتهم وبناتهم ؛ فليس لهم عند أحد من هؤلاء منزلة ابن العربية الحرة . . .

من أجل ذلك أبعد مسلمة عن عرش بني مروان ، وهو من إخوته كما قال أبوه : حكيمهم الذى عن رأيه يصدرون ، وبابهم الذى منه يعبرون ، ومِجَنُّهم الذى به يستجنُّون . . .

ومن أجل ذلك كذلك ، كتم النعمان بن عبيد الله عن أمه وأهله أمر امرأته سبيكة ، فلم يحدثهم أنها أمُّ ولد وقعت له سبيَّة فى بعض الغزوات فحازها فى داره حتى نضجت نضج الأنثى وأحكمت العربية لساناً وتشربت الإسلام ديناً ، فاتخذها أم ولد ، ثم ترقى بها درجة فجعلها زوجاً ، ثم حملها إلى أهله لا يدرون من أمرها إلا أنها أم عتيبة بن النعمان !

لقد خشى النعمان أن يهجِّن أولاد عمومته ولده عتيبة حين يعرفون أنه لأمِّ ولد رومية ؛ فكذب تلك الكذبة الصامتة ولم يتحدث إلى أهله بشيء من خبرها ؛ وبعض الكذب لا تلفظه شفتان !

ولكن هذا النحول فى القد ، وتلك الزرقة فى العينين ، وذاك الشحوب فى الخد ، وذلك النبر فى الحديث ــ كل ذلك ينم نميمة فاضحة عن أرومة تلك الصبية ؛ فتهامس حولها بعض الشفاه ، وتنقبض عنها بعض النفوس !

ويفد النعمان إلى الرقة زائراً ذات مرة ــ كبعض عادته ــ بعد غيبة طويلة ، فتلقاه زوجه طيبة النفس راضية قد افتر

ثغرها عن ابتسامة تعبر عن مدى شوقها إليه وسرورها بمقدمه ، ولكنه يرى وجنتيها قد ازدادتا شحوباً ، وعينيها قد بدتا أكثر زرقة وعمقاً ؛ ويرى على تينك الشفتين الرقيقتين كلمات تختلج ، يجاذبها الحياء منه والحفاظ على مودته أن تلفظها ؛ ويسألها النعمان عما بها فلا تجيب ، ولكنها ما تكاد تسمع صوته الحانى حتى تستحيل الاختلاجة على الشفتين دموعاً تنحدر على الوجنتين الشاحبتين !

ويدنو منها النعمان فيمسح على شعرها بيده ويعيد سؤاله متلطفاً ، فتجيبه بكلمات قصار :

— ليس يخفى علىّ يا نعمان — ولا يطيب لى أن أنكر — أننى جاريتك !

— بل زوجتى وأم ولدى يا سبيكة !

— نعم ، أم ولدك التى أكرمتها بنسبك فسميتها زوجاً !

— بل أنت أكرمتينى يا سبيكة بَدِيًّا بما أسبغت علىّ من حنانك وعطفك ، ثم أكرمتينى ثانية حين ولدت لى عتيبة هذا الذى أرجو أن يكون قرة عين لى ولك ، ولازلت تكرمينى بما تحفظين من غيبى وتحدبين على أهلى وترعين ولدى راضية صابرة على مُر الفراق وشظف العيش !

— ولكن أمك لا ترضى يا نعمان !

— أمى ؟

ــ وزوج أخيك أيضاً ، وولدك عتيبة !

ماذا ؟ قد علمت من علم الناس أن الحماة والسلفة لا ترضيان أبداً عن الكنة . . . ولكن ما شأن ولدنا عتيبة ؟

ــ إنه مثلهما ينكر على أمه أنها ليست عربية !

ــ ومن أنبأه ؟

ــ لم ينبئه أحد !

ــ فماذا قال إذن ؟

ــ جاءنى ذات يوم يسألنى : إلى أىّ العرب من أهل اللاذقية تنتسبين يا أم ؟

ــ فكيف كان جوابك ؟

ــ قلت له : إن أباك يعرف . ولم أزد ؛ فقد خنقتنى العبرة ففررت من بين يديه إلى خلوتى !

ــ أفهذا ما تقولين إنه ينكره عليك ؟

ــ نعم !

ــ لقد أسأت الفهم يا سبيكة !

ــ بل قل : يا سبيّة !

ــ أوه !

ــ لست أريد مساءتك يا نعمان !

ــ ولم يُرد عتيبة مساءتك ؟

ـــ ففيم كان سؤاله ذاك عن نسبي !

ـــ تلك عادة عربية : أن يفخر الأبناء بما يمتُّون من نسب الآباء والأمهات !

ـــ وكيف كنت ترانى أجيب ؟

قال النعمان ضاحكاً وقد مال عليها حتى خالطتها أنفاسه :

ـــ قولى له : إنك فى أعلى بيت من بنى الأصفر !

ونفرت سبيكة مبتعدة وعضت على شفتها ، ثم أرسلت عينيها وقالت وقد سترت وجهها بكفيها وبدنها يختاج كله :

ـــ وكذلك أنت يا نعمان ما تزال تقولها !

قال وقد زحف إليها حتى لاصقها ثانية :

فماذا كنت تريدين أن أقول إذن ؟

ـــ لا شيء !

ـــ ولكن كل مسئول لابد أن يجيب !

قالت وقد شرعت عينيها وبرق فيهما بريق عجيب :

ـــ قل إنك ولدتنى ولادة ثانية ثم اتخذتنى زوجاً !

ـــ وإذن فأنا أبوك وزوجك ؟

ـــ نعم !

ـــ ولكنك أنت ولدتينى كذلك ثم ولدتِ لى !

ـــ إذن فأنا أمك وزوجك ؟

ـــ نعم !

ـــ وأملك الأخرى؟

ـــ إن لكل رجل أمَّين وأبوين !

ـــ ولكل امرأة ! . . .

ـــ فمن أملك الثانية إذن ؟

ـــ أمُّك !

ـــ ولكنك تكرهينها يا سبيكة فيما أرى !

ـــ بل هى تكرهنى !

ـــ وهل تكره الأم ابنتها ؟

ـــ نعم ، حين تكون كنَّة لها فتغلبها على أمومة ولدها !

ـــ فهل أيقنت إذن أنك قد غلبتيها على أمومتى ! . . .

ـــ أيقنت !

قال وقد مد إليها يداً يعابثها :

ـــ فإن طفلك الكبير . . . جائع ، فهلا أرضعتيه يا أم !

فابتعدت عنه معجلة وهى تقول :

ـــ صه ، فإن عتيبة قادم !

وسُمع وقع أقدامه فى الفناء ، ثم دنا ، فدخل ، فألقى بنفسه بين ذراعى أبيه ! . . .

* * *

لم يعد عتيبة صبيّا ، فقد شب ونما واخضر شاربه ، وكان قويًّا عريض الألواح مفتول الساعد خشن الكف ، ولكن فى خديه شحوباً ، وفى عينيه زرقة وعمق ، ولصوته نبر عذب ؛ من يراه ويرى هذين الرجل والمرأة لا يشك للنظرة الأولى أنهما زوجان قد أنجبا ؛ فإن فيه من كليهما وليس فى أحدهما من صاحبه شىء . . .

ورأى عتيبة فرصة سانحة ليتحدث إلى أبيه فى أمر يشغله منذ بعيد ؛ ثم استحيا ، فآثر السكوت حتى يروى فى الأمر فيعرف من أين يبدأ . . .

ولكن الرجل الكهل لم يكن من الغفلة بحيث يغيب عنه معنى تلك اللمحات الغامضة والإشارات المكبوتة التى بدت من ولده حين أخذا فى الحديث عن بعض ما كان هنا وهنالك فى أثناء تلك الغيبة الطويلة . . .

* * *

— إن عتيبة قد بلغ مبلغ الرجال يا سبيكة !

— نعم !

— ويرى من حقه أن يؤوى إليه زوجة !

— نعم !

— وتغلبك على أمومتك أمٌّ أخرى . . .

ـــ تخفُّ تبعاتى إذن !

ـــ أتؤمنين بما تقولين يا سبيكة ؟

ـــ كل الإيمان !

ـــ وإذا لم يجد عندها ما يلتمس كل رجل فى امرأته من حنان الأمومة وعطف الزوجة وإيثار الحب ؟ . . .

ـــ لن يفتقد عتيبة عند زوجه شيئاً من ذلك !

ـــ تعرفينها إذن ؟

ـــ نعم !

ـــ حدَّثك بخبرها ؟

ـــ حدثتنى عيناه دون لسانه !

ـــ أهى نوار بنت عمه ؟

ـــ من حدثك ؟

ـــ حدثتنى عيناه كذلك ؟

ـــ وبماذا أجبته ؟

ـــ غضضت طرفى واصطنعت الغفلة !

ـــ ولمه ؟

ـــ أردت أن أستنبئ عينيها قبل أن آخذ فى الحديث معه !

ـــ ولكن عينيها لا تتحدثان إلى أحد بشىء !

ـــ فكيف عرفتِ إذن أنها تحبه ؟

ـــ إن عيون النساء أقدر على الغوص فى أعماق النفوس والكشف عن خبيثاتها !

ـــ وغاصت عيناكِ فى أعماقها وكشفتا عن خبيئتها ؟

ـــ ورأيت صورته فى أعمق الأغوار من قلبها ، ولكن إطاراً أسود يمسكها ويلقى عليها ظلا كريهاً ؟

ـــ لست أفهم ما تعنين يا سبيكة !

ـــ إن أمها لا تريد أن يكون زوجها فتى هجيناً يتدسس إليه عرق من الروم الذين أيتموها جنيناً وأيّموا أمها شابة !

ـــ ومن أنبأها أن عتيبة يمتُّ إلى الروم ؟

ـــ لم ينبئها أحد !

ـــ فكيف عرفت إذن ؟

ـــ ذاك يوم جاء يسألنى عن نسبي !

ـــ قد وهمتِ يا سبيكة !

ـــ وشيء آخر . . .

ـــ ماذا ؟

ـــ كلمة لا أقولها . . .

ـــ بل قوليها . . .

ـــ لقد حدثتنى أمها ذات يوم أنها لن تزوج فتاتها إلا لفتى يمهرها تاج بطريق رومى !

ـــ ما أرخصه مهراً !

ـــ يقتله ويحمل إليها تاجه !

ـــ فهمت !

ـــ ويسوق إليها مع هذا المهر جارية من بنات البطارقة !

ـــ وفيم هذا الغلوّ ؟

ـــ تريد تثأر لأبيها !

ـــ ولكن أباها لم يمت !

ـــ ماذا قلت ! . . .

لم يكن النعمان يريد أن يفضى إلى أحد بذلك السر ؛ فإنه لم يطب له عيش منذ حمله ؛ وليس يريد أن يشق على أحبائه بتحميلهم من ذلك ما لا يحتمل هو ؛ ثم إن أمر أخيه لم يزل حدساً لا يعرف أين تكون آخرته ، أإلى لقاء سعيد أم إلى خيبة أشدّ مرارة من ذلك الحاضر المر ؛ فلم تكد تجرى على لسانه تلك العبارة وتتبعها امرأته بالسؤال حتى فاء إلى نفسه واستدرك :

ـــ أعنى أن أباها لم يعرف أحد أين ذهب ؛ فمن أين لها أن الروم قتلته ؟

ـــ كذلك تزعم !

ـــ ولكن هذا الزعم لن يحول بين قلبين قد تعارفا فائتلفا

فأضمر كل منهما لصاحبه مثل ما يضمر لنفسه !

– وذلك المهر ؟

– دعى ذلك إلى إبانه !

* * *

لم يودع النعمان زوجته وولده فى هذه المره قلقاً حيران قد توزعته التبعات ؛ فقد خلف على أهله فى هذه المرة رجلين يقومان بأمرهم ؛ هما عتيبة ابنه وبشير ابن أخيه ؛ وقد كشف لزوجته عن ذات صدره فى أمور لم يكشف لها عن مثلها من قبل ؛ وتحدث إلى أمه وامرأة أخيه وولديها أحاديث ذات بال فى شئون شتى ؛ ولم يصرِّح بكل ما فى نفسه ، ولكنه مهد تمهيداً لبعض الأمر ووضع فى الأرض الطيبة بذرة يرجو لها النماء . . .

ثم وثب إلى ظهر فرسه ومضى . . .

وكان فتى وفتاة يتبعانه بأعين دامعة وقلباهما يجفان ؛ ثم لم يكد يغيب الراكب المغذُّ حتى التقت أعينهما فى نظرة طويلة ، ثم أنغضت الفتاة رأسها وأنغض الفتى ، واتخذا طريقهما صامتين إلى الدار !

١٠
قبر على الطريق !

لم تزل الغنائم والأسلاب والأسارى تتدفق على الثغور الإسلامية إثر كل صائفة وشاتية ، قد ازدحمت بها الأسواق وقلت فيها الرغبة ، حتى ليباع مطرف الخز بدراهم ، وتشرى السبيّة من بنات الأمراء والسادة بدينار ؛ على أن أعظم ما أفاء الله على المسلمين فى تلك السنين من غنائم الحرب ، ما عاد به موسى بن نصير قائد جيش المغرب — إلى الوليد — من غنائم الأندلس .

هذا موكبه يدخل دمشق فى سنة ٩٤ فيذهل الوالدة عن ولدها ويلهى الصبى عن طعامه وشرابه :

ذلك أمير الركب موسى بن نصير فى وشيه وديباجه ؛ يتبعه ثلاثون غلاماً من أولاد ملوك الأسبان على رءوسهم التيجان ويلبسون الثياب مطرزة بخيوط الذهب مرقشة بفصوص الجوهر ، يسعى بين أيديهم المئات من غلمانهم وخدمهم وحشمهم كأنهم فى موكبهم الملوكى بطليطلة ؛ يتبع أولئك عجلات تجرها

الدواب ولا تكاد ، قد رص عليها ما لا يحصى من أحمال الذهب والفضة والجوهر والياقوت والطنافس المنسوجة بقضبان الذهب المنظومة باللؤلؤ الغالى والجوهر المثمن ؛ يتبع ذلك عجلات أخرى قد تفسخت من ثقل ما تحمل ، عليها مائدة سليمان بن داود قد نقلت من حيث كانت فى طليطلة إلى عاصمة الدولة فى دمشق ، وكانت من خالص الذهب والفضة وعليها ثلاثة أطواق من لؤلؤ وياقوت وزمرد ؛ يتبع كل أولئك موكب الأسارى وعدتهم أربعون ألفاً من أبناء الأسبان .

ذلك كله هو بعض الخمس مما اغتنم موسى بن نصير فى حرب الأندلس ؛ فكم جملة ما حصَّل من السبايا والأسارى والمغانم !

* * *

قال مسلمة للنعمان بن عبيد الله :

ــ أتذكر ما قال ذلك الراهب يا أبا عتيبة ؟ فقد رفع سليمان بن داود الغطاء عن المائدة للضيفان ؛ أفلا تظن بعد هذا أن موعد المأدبة قد حان ؟

قال النعمان :

ــ صدق الراهب وبرّ !

ــ بل كذب وفجر ، وإن وافقه القدر !

وصمت مسلمة برهة ثم أردف :

ـ وسأخرج إلى الحجاز فى عامى هذا فأؤدى الفريضة ، ثم أرجع فأعد للغزو عدته ؛ لا أنتظر سبعمئة ولا سبعين ولا سبعة . ليس موسى بن نصير ومولاه طارق بأوسع ذرعاً من مسلمة ؛ فسنفتح القسطنطينية وننفذ منها إلى الأرض الكبيرة قبل أن يجاوز موسى بن نصير جبل الزهرة إلى أرض إفرنسه ؛ وتشهد دمشق موكباً آخر قريباً يُنسى أهل الشام موكب موسى ابن نصير ويلهيهم عن مائدة سليمان بن داود !

* * *

كان عهد الوليد بن عبد الملك خليقاً بأن يطول ، فقد ولى الخلافة ولم يزل فى باكر الشباب ؛ وقد عمر أبوه عبد الملك وجده مروان حتى جاوزا الستين ؛ ولكن بنى عبد الملك كثير ؛ وكأن كلا منهم قد استقر فى وعيه الباطن أن من حقه أن يجلس فترة من عمره على عرش عبد الملك ، فلولا بقية من الحفاظ على العهد ـ أو لعلها خشية افتراق الكلمة ـ لوثب بعضهم على بعض يستبقون عرش الخلافة ؛ فكأنما اقتضت حكمة الله ألا يعمّر الوليد طويلا من أجل ذلك . . .

على أن الوليد كان على نية الغدر ، فلولا أن الأجل أعجله عن مأمله لجعلها وراثة لولده دون أخيه وولى عهده سليمان ؛

وكان يؤازره على هذه النية طائفة من أمرائه وبطانته وقادة جنده ؛ فلما بغته الموت ووليها من بعده سليمان بن عبد الملك ، كانت أشياء تحيك فى صدره من هؤلاء الأمراء والقادة وبطانة الخليفة الراحل . . . وكانت أشياء تحيك فى صدورهم كذلك؛ ولكن مسلمة بن عبد الملك — كما قال أبوه — كان مِجنّ هذه الدولة ، فردّ سيوفاً — كانت مشرعة — إلى أغمادها ، وبصق على الفتنة فانطفأت !

* * *

وتهيأ مسلمة للحج ، ففرق أصحابه على الثغور ، وعقد الألوية لأمراء الصائفة ، ووزع الأعطيات فى الجند ؛ ثم سار فى موكب فخم ضخم على ظهر البادية إلى الحجاز ، يصحبه النعمان بن عبيد الله . . .

ونزلوا ذات يوم للقيلولة فى بعض مراحل الطريق ، ثم نهضوا يستأنفون الرحلة ؛ وكان بالنعمان فى ذلك اليوم وجع يثقل به فلا يكاد ينهض ، ولكنه لم يطب نفساً بالتخلف عن صحابته ، فتحامل على نفسه حتى ركب ، وأسلم زمام ناقته إلى الحادى ، ثم أخذته إغفاءة بعد طول الأين ، فمال برأسه على قتب الراحلة ، وسبحت به الأحلام فى بحر بعيد الشاطئ ، فانكشفت له صور من الحياة لم يرها من قبل ولم تخطر

له فى وهم ولا فى أمنية ! . . .

ثم نشط من إغفاءته هذه معافى خفيف الحركة ، ولكن رأسه مما ازدحم فيه من الأوهام والصور لا يكاد يثبت بين كتفيه . . .

واستمر الركب فى سراه على ظهر البادية والحداة يوقعون أغانيهم فى هدوء الليل فترجّع الصخور صداها عذباً صافى الرنين كأن موسيقى تعزف وراء تلك التلال التى تكتنف طريق القافلة . . .

وامتلأت نفس النعمان شعراً بليغاً رائقاً ، ولكن شفتيه لم تلفظا بيتاً ولم يتحرك لسانه بقافية ، ثم استحالت هذه العواطف الشاعرة دموعاً فى أجفانه وتأججت ناراً فى رأسه ؛ وكان نسيم الليل بارداً بليلا فحبس فى عينيه تلك الدموع ولكنه لم يطفئ الوجد الملتهب فى صدره والنار المشتعلة فى رأسه ؛ وبسط صدره ورفع أنفه يعب الهواء عبًّا ولكنه لم يرو من ظمأ أو يبترد من غلة ؛ واستحث راحلته حتى تقدمت فحاذت راحلة أمير الركب مسلمة بن عبد الملك ، فهمّ أن يتحدث إليه حديثاً ثم أمسك . . .

والتفت مسلمة إلى حيث كان النعمان فرآه فعرفه فبدأه محيياً :

ـ طابت رحلتك يا أبا عتيبة !

ـ طابت لك الرحلة والإقامة يا مولاى !

وكان مسلمة قريب الإفاقة من إغفاءة حالمة مثل إغفاءة صاحبه ، قد رأى فيها رؤيا وانكشفت له صور من ماضيه وحاضره وصور أخرى لم يرها من قبل؛ وكان النعمان يصحبه فى كل مراحل الرؤيا ؛ فلم يكد يفيق من إغفاءته ويرى النعمان إلى جانب راحلته حتى أخذه العجب ، فقال وفى صوته نبر غريب :

ـ لأمرما رأيتك إلى جانبى الساعة يا أبا عتيبة !

ـ لقد رأيت رؤيا يا مولاى فرغبت . . .

ـ رؤيا ؟ . .

ـ نعم ، وكان الأمير معى . . .

ـ معك !

ـ أعنى أننى كنت معه . . .

ـ نعم ، نعم !

ـ ورأيتك تضم إليك شاباً فيه ملامح من أبيه فتتملاه طويلا ثم تفيض عيناك بالدموع . . . ولم أكن معكما بعد ذلك ولكنى رأيت كل ما كان وعرفت . . .

قال مسلمة كالذاهل :

ــ نعم ، نعم ؛ ولكن كيف حدث هذا ؟ . . .

ــ قد رأيت . . .

ــ عرفت . . . ولكن كيف اقتحمتَ عليَّ غفوتى فرأيتَ ما رأيتُ ؟ . . .

ــ وى ! . . . ورأى مولاى مثلى هذه الرؤيا ؟ . . .

فاء مسلمة إلى نفسه ولم يكد ، فقال مستدركاً :

ــ ثم ماذا يا نعمان ، فإن حديثك لعجيب !

ــ حسبت مولاىِ قال إنه رأى مثل رؤياى !

ــ بل عجبت أن تكون معى وأكون معك ، فى اليقظة والمنام . . . إن بيننا نسباً يا أبا عتيبة ! . . .

ــ وكذلك تراءى لى . . .

وهمّ لسان مسلمة أن يسبقه ثانية إلى ما لا يريد أن يصرح به ، فأمسك وترك النعمان يقص رؤياه ، لا يزيد على أن يقول له بين الحين والحين :

ــ هيه يا أبا عتيبة ! . . .

ومضى النعمان فى قصصه :

ــ ورأيت ولدى عتيبة على رأسى وقد اخضلّت عيناه بالدمع ، وكانت أمه سبيكة وراء ظهره ، وكان على وجهها ستر رقيق تجول عيناها من ورائه ؛ وكان مجلسك يا مولاى إلى

يمين فراشى ، ورأيت عينى سبيكة تستقران على وجهك ، ورأيت عينيك تستقران على وجهها ؛ فثار دمى غيرة وحنقاً — ومعذرة إليك يا مولاى — وهممت أن أنهض ، ولكن جسدى كان قد ناله يبس الموت ؛ وهمَّ لسانى أن ينطق ، ولكنه لصق بفكى ؛ وكأنما كنت أرى بغير عينين ، فقد كانت أجفانى مثقلة قد أطبقت واشتبكت أهدابها ، ولكن المنظر مع ذلك لم يزايلنى : كانت عيناك مستقرتين على وجهها ، وعلى شفتيك كلمات أراها ولا أسمعها ، وبعض الكلام يُرى ولا يُسمع ؛ ثم ملتَ علىّ فقبلت جبينى وانحدرتْ على خديك دمعتان ، وسمعتك تقول : هوِّن عليك يا أبا عتيبة ، إن بيننا نسباً وصهراً . . .

وكانت دمعتان تنحدران فى تلك اللحظة على خدى مسلمة ، وقد مال على النعمان كأنما يهم أن يقبله ، لولا بُعد ما بين الراحلتين ؛ ثم قال وصوته يختلج :

— هيه يا أبا عتيبة !

— وخففتُ من ثقل ، وحلقت بعيداً ، وغاب عنى منظر السماء والأرض ، ثم فئتُ إليك ؛ ورأيتك هذه المرة فى خيمة من ديباج قد أقيمت فى واد أفيح قد انبسط الزرع فيه على مد البصر وانتثرت فيه بيوت من خشب تسرح حواليها قطعان

من الجاموس والغنم ؛ وكأنما سمعت الأذان والتكبير فى هذه البيوت المنتثرة بين المراعى الخصبة ، فعلمت أننى فى أرض مُسلمة وأنك صاحبها ؛ فإن صدقتْ رؤياى يا مولاى فتلك بضعة من أرض الروم مما يلى القسطنطينية حيث ينتهى خليج أبى أيوب ؛ لقد نزلتُ هذه الأرض ذات مرة فى بعض الصوائف ضيفاً على أبى أيوب ، فأطعمنى من ثمراتها وسقانى وأظلّ مقيلى !

كان مسلمة منصتاً لحديث صاحبه ، وصاحبه مسترسل فيما يقص من رؤياه :

ــ ورأيتك فى خيمتك هذه التى وصفت ، وقد سيق إليك أسارى من الروم فأمرتَ بأن تُضرب أعناقهم ، ومثلتْ سبيكّة لعينىّ فى تلك اللحظة قد حالت بينك وبين ما أردت أن تسفك من دمائهم ، فنوّلتها العفو عنهم ونوّلتهم العافية ! . . .

وكان بدن مسلمة يختلج وهو يقول وصوته لا يكاد يبلغ أذنيه :

ــ هيه يا أبا عتيبة !

ــ ثم رأيتك فى الرقة ؛ وكان ثمة أخى عتبة قد جلس بين ولديه بشير ونوار ، ورأيتك تدنى عتيبة ولدى منك فتضمه إليك وعلى شفتيك كلمات لم أسمعها ولم أرها ، وتُفيض برك

على أخى وولدى وأهلى جميعاً لا تستثنى منهم أحداً ؛ ثم تمضى وعلى شفتيك كلمات لم أسمعها ولم أرها كذلك . . .

ـ ثم ماذا يا أبا عتيبة ؟

ـ ثم أرانى وإياك على راحلتين فى أرض البلقاء ، نقصد ذلك الدير الذى لقينا فيه الراهب ذات يوم فحدثنا ؛ ولكننا نجد الراهب قد مات ، فنرجع محزونين وأنت تقول : قد انقطع الوحى منذ محمد ؛ وما صدق الراهب ولا بر ، بل كذب وفجر ، وإن وافقه القدر ؛ ولولا علالة نفس تستشرف إلى معرفة ما استسرّ فى غدها من غيب الله ما غبّرت قدمىّ فى هذه البادية ألتمس إلى التسلية سبباً وأنشد راحة نفس !

ـ ثم ماذا يا أبا عتيبة ؟

ـ ثم أفقت من إغفاءتى فإذا أنا على هذا الطريق فى ركب الحاج إلى مكة ، قد شرفنى مولاى بصحبته وبسط لى معروفه وبرّه !

ـ ذاك حقك علينا يا أبا عتيبة ؛ ولكن ما شأن ولدك عتيبة هذا وخبره ، فقد شوّقتنا إليه يا صاح !

ـ فتى يخطو إلى الشباب ، قد خلف أباه على أهله ، وحفظ عنه الولاء لأميره ؛ فهو غلامك يا مولاى وإن لم يكن له حظ الرؤية وشرف المصاحبة !

ـ فقد صار له علينا الحق إذن أن نثبته فى ديوان الجند ، وأن نقدر له الأعطية ونعفيه من عبء الجهاد ، حفاظاً لعهد أبيه ، واعترافاً بما أبلى فى الحرب وما لا يزال يبلى . . .

ـ بورك لك يا مولاى !

ـ وبورك لك يا أبا عتيبة !

ـ ولكن هذه الرؤيا التى رأيت . . .

ـ اكتمها يا نعمان فلا تقصصها على أحد ، حتى ندخل المدينة فنلتمس ابن سيرين فى مسجد رسول الله فنقصها عليه فنسأله تعبيرها ؛ وإنى لأرجو أن تكون خيراً بُشرت به !

وانسرح مسلمة فى واد سحيق والهواجس تصطرع فى رأسه ، وانسرح النعمان فى واد آخر . . .

هذه الرؤيا التى قصها النعمان على مسلمة لم تكن غريبة عليه ؛ لقد تراءت له فى إغفاءته تلك القصيرة كما تراءت لصاحبه وكما قصها عليه ؛ ولو كانت أضغاثَ أحلام لما تراءت فى صورة واحدة لرجلين قد اختلفا نفساً وتباعدا آمالا وتباينا فى أسلوب العيش وإدراك صور الحياة !

وخطرت فى رأس مسلمة صورة أمه ورد ، ثم غابت فى حواشى الظلام ، وخفق قلبه خفقة ؛ لقد خلّفها فى دمشق

مريضة ؛ أتكون الآن فى اللحظة التى تذكر فيها كلُّ أم ولدها وولدها بعيد قد لفه الليل فى مجاهل البادية ليس له سبيل إلى لقائها ؟

وضاق صدره ، ولكن نسيم الليل الهادئ لم يلبث أن رده إلى نوع من الهدوء يشبه الاستسلام ؛ فاطّرح كل ما يصطرع من الأوهام فى رأسه وأقبل على ذكر الله مطمئنًّا راضياً مؤمناً بقضاء الله وقدره !

١١
لبيك أبا أيوب !

وعاد ركب الحاج من المدينة ولم يكن فيه النعمان ، فقد حضره أجله فى مكة قبل أن يحل من إحرامه وقبل أن يدخل المدينة ليقص رؤياه على ابن سيرين ويعرف تأويلها ؛ ولم يقصها عليه مسلمة أو يلتمس لقاءه ؛ فقد كان من رزئه بصاحبه فى هم ، وكان من الرغبة فى سرعة الرواح إلى دمشق ليرى أمه بحيث لم يمكث فى مدينة الرسول إلا بمقدار ما زار ووفى النذور وفرق الأعطيات ؛ ثم نادى مناديه فى القافلة بالرحيل !

وبلغ دمشق ، ولكنه لم ير أمه ؛ فقد ودعت أمه دمشق وتركت دنياها جميعاً قبل أن يعود مسلمة ولدها من حجته !

وقعد مسلمة أياماً يتقبل العزاء ؛ ولكنه لم ينس منذ أول لحظة هبط فيها الحاضرة أن عليه حقّاً لرفيقه الذى خلّفه تحت الجنادل فى صعيد مكة ؛ فأرسل رسولا إلى ولده عتيبة فى الرقة ، وأرسل معه لأسرة الشهيد مالا وأحمالا . . .

* * *

كانت جيوش الفتح قد بلغت شأواً بعيداً فى الشرق والغرب ، قد قوّض جيش المغرب عرش الأسبان وحاز الأندلس من أطرافها ، وأخذ يتهيأ للزحف شرقاً نحو بلاد إفرنسه وما يليها من أرض الروم ؛ وبلغت جيوش المشرق قزوين وجبال القبج ونفذت إلى شواطئ بحر بنطش « البحر الأسود » ؛ واتخذ أسطول العرب قواعده فى ثغور بحر الروم يتهيأ منها للوثبة ، ولا تزال بعض سفنه تغدو وتروح على بحر بنطش وخليج القسطنطينية فتصيب من ثغور الروم غنائم وأسرى وسبايا ؛ وما تنفك قوات الفدائيين من العرب المتطوعة تغير على أطراف بلاد الروم تشعّث فيها وتدك حصونها وتنشر بين أهلها الرعب والفزع . . .

وقد عجزت جيوش الروم عن صد هذه الغارات العربية

المتابعة على البر والبحر ، وأخذوا بالرعب عن تدبير أسباب الدفاع عن بلادهم ، فساءوا رأياً فى القياصرة والبطارقة والأمراء وقادة الجند ، ووقعوا فى اضطراب وفوضى ولجاج عنيف ، فلا يكاد يستقر على العرش قيصر من القياصرة حتى يبادروا إليه فيخلعوه فيقتلوه أو يسملوا عينيه أو يجدعوا أنفه وينفوه إلى جزائر البحر أو سهول القريم . . .

وخلا عرش القسطنطينية من قيصر . . . وسنحت الفرصة ليضرب العرب ضربتهم الحاسمة !

وقال أنسطاثيوس الصالح كاتم سر القيصر المخلوع :

— قد والله أوشك العرب أن ينالوا مناهم ويملكوا البر والبحر والسهل والجبل ؛ وقد غلب أسطولهم على البحرين ونفذ إلى الخليج ووطئت جنودهم ساحل « أبيدوس » ، وكأنى بهم قد وثبوا غداً إلى « بيزانت » و « كيلس » فنقبوا الأسوار أو تسلقوها كالجن فإذا هم بين ظهرانينا لا يردهم أحد ؛ وكأنى بمسلمة على رأس جيشه قد وطئ بلاط قسطنطين وحطم تاجه ودنس « أيا صوفيا » بنعله وكبَّ تمثال العذراء على وجهه !

قال قسطنطين بطريق أبيدوس :

— بعض هذا أيها الأمير ؛ فوالله لا ينالون منا منالا وفينا عرق بنبض ؛ فإلا يكن دفاعنا عن أرضنا وديارنا وحرماتنا ،

فليكن دفاعنا عن الصليب وتمثال العذراء !

قال ميناس القائد ساخراً :

ــ فهلا دافع قسطنطين عن عرضه إذ سبيت بنتاه وسيقتا تحت عينيه إلى الأسر فلم يستطع ردهما ولا يزال يبكى فقدهما بكاء يعقوب ، لا يكاد يخف لأخذ الثأر ؟

قال قسطنطين مغضباً :

ــ ألِي يقال هذا ؟ وما رأيت بطريقاً من البطارقة قد حمل بعض ما حملت من عبء الدفاع عن ذلك الثغر ؛ فإن كانت بنتاى قد سبيتا واحدة بعد واحدة فما قصرت فى الدفاع ولا عجزت عن الثأر ؛ وما طرق العدو أبيدوس مرة إلا خلف نصف جنده على ثراها صرعى أو أسارى مقرنين فى الأصفاد ؛ ووالله ما يخدم أهلى منذ بعيد إلا الأسارى من سادة العرب !

وكأنما أجدّ هذا الحديث ذكرى أليمة لقسطنطين ومس عاطفته حديثُ بنتيه ، فغلبه مدمعه !

وكان قسطنطين هذا بطريقاً شيخاً قد نيف على السبعين ؛ وكان له فى تلك الدولة سلطان وجاه قبل أن يتغلب على عرشها هؤلاء المتغلبون من السوقة والطغام وكل صاحب أيد وكيد ، من قيصر كان غناماً ، وآخر كان جابياً ، وثالث كان جندياً فى المؤخرة فبرز إلى الطليعة ثم ترقى إلى القيادة ووثب على

العرش ؛ فلما اضطرب حال القياصرة وضعفت مهابتهم فى نفوس الخاصة والعامة وآذنت الدولة بهذا الانحلال الخطير ، اعتزل البلاط وعزف عن السياسة وأوى إلى هذه البليدة على الشاطىء الأسيوى من خليج القسطنطينية ، فحشد فيها أهله وولده وقبيله ، واتخذها دار إقامة بعيداً عن مكايد الساسة ومؤمرات القواد وتقلبات الحوادث . . .

ولكنه وقد التمس الهدوء فى موطنه هذا الجديد لم يوفق إلى ما أراد ، فإن غارات الفدائيين من العرب لم تزل تناله من البر والبحر ؛ فلما كانت أيام القيصر قسطنطين بوغونات ، وحاصرت جيوش معاوية مدينة الروم فطوقتها براً وبحراً بالآلاف من السفن وعشرات الآلاف من الجند ، نزلت أبيدوسَ سريةٌ من سرايا العرب فأعجلت أهلها عن الدفاع وعاثت فيها عيثاً شديداً ، ففتكت وهتكت واحتملت أسارى وسبايا ؛ وكان فيمن سُبيت بنت قسطنطين نفسه ؛ وقد دافع البطريق البطل عن أهله وولده وبلده ما استطاع الدفاع ، حتى رد العرب على أدبارهم ، ولكنه لم يستطع أن يستخلص فتاته السبيّة ، وحُملت فيمن حمل من الأسارى والسبايا إلى دمشق . . .

وتتابعت غارات العرب بعد ذلك على هذا الحصن الصغير ، كل صائفة وكل شاتية ، ولكن قسطنطين لم يقصر فى الدفاع مرة . . .

فلما كانت أيام جوستنيان الثانى — بعد استباء بنت قسطنطين بعشرين سنة أو يزيد — وبدا للروم أن الدولة العربية فى الشام قد أشرفت على الانحلال — أيام عبد الملك — لما يتوزعها من أسباب الخلاف وما ينشب فيها من الفتن ، كان قسطنطين أول من كتّب الكتائب الرومية لاهتبال الفرصة السانحة ودعا الروم إلى التطوع للجهاد ؛ وكانت الفرقة التى ألفها من بنيه وبنى إخوته ومن شباب أبيدوس ، أولَ فرقة رومية وطئت ثغر أنطاكية وأوغلت فى أرض الشام . ثم كان الصلح بين عبد الملك وجوستنيان الثانى ، فارتد الروم مصحرين أو مبحرين إلى بلادهم ، ولكن قسطنطين لم يرتد حتى أصاب غنائم وأسرى مصفدين فى الأغلال يسوقهم إلى أبيدوس ؛ ولولا أن جوستنيان أمره فأغلظ فى الأمر لما عاد حتى يثخن فى بلاد العرب ويبلغ شيئاً من العلم عما آل إليه أمر ابنته التى استباها العرب منذ نيف وعشرين سنة ، ولكنه مع ذلك قد ارتد بأسارى يرجو أن يبقوا عنده رهائن إلى يوم قريب أو بعيد . . .

وكان الشاطئ الشمالى من خليج القسطنطينية قبلة الغزاة العرب فى كل غارة ، حيث يثوى أبو أيوب الأنصارى تحت أسوار القسطنطينية ، يهاجرون إليه لينزلوا عليه ضيوفاً فى داره

هذه التى اتخذها مثوى إلى يوم يبعث الله الموتى؛ فكانت أبيدوس لذلك طريقاً لهؤلاء الغزاة المغيرين، يبيّتونها برّاً وبحراً فى الذهاب والعودة ، ويصيبون من أهلها ويصيب أهلها منهم ؛ فلم تنقطع الغارات عليها صائفة ولا شاتية ، ولم يكف قسطنطين عن النضال !

ثم كانت غارة من تلك الغارات المباغتة ، أثخن فيها العدو فى الروم إثخاناً شديداً واحتملوا أسارى وسبايا ؛ وكان بين السبايا ابنة أخرى لقسطنطين ، لم تنضج نضج الأنثى ولكنها جاوزت حد الطفولة . . . وافتلذ العرب فلذة أخرى من كبد البطريق المرزّأ . . .

هل كان البطريق قسطنطين يجاهد العرب منذ ذلك اليوم ثأراً لابنتيه السبيتّين ، أو ثأراً لوطنه وكفاحاً عن أمجاد قومه ؟

من يدرى ؟ ولكنه على أى حاليه لم يكف عن النضال !

ويعيره القائد ميناس بسبى ابنتيه ، ويوشك أن يتهمه فى وطنيته ، وفى شجاعته ومصابرته ؛ فيدافع دفاع الغضبان ، ثم لا يلبث أن يغلبه الدمع ! . . .

يا للبطريق الشيخ ! دريئة من درايا قومه يتلقى عنهم سهام العدو ففى كل موضع منه جراحة لم تلتئم ، ويتهمه قومه بالجبن والخور ! . . .

وابنتاه . . . أين ابنتاه اليوم ؟

أحظيّتان فى بعض بيوت الأمراء والسادة ، أم جاريتان ممتهنتان فى بعض بيوت الرعاع والسوقة ؟

أولَدتا لبعض العرب جنداً يشهرون السيوف فى وجوه بنى الخال والخالة من سادة الروم ؛ أم آثرتا الموت على ذل الإسار أو آثرهما الموت ؟

أتذكرانه كما يذكرهما ويذكرهما معه الإخوة والأخوات وبنو الأعمام والعمات ؛ أم استبدلتا فى العرب أهلا بأهل وباعتا بالسيد والولد الأبَ والأم والإخوة والأخوات ؟

على ظهر أى البلاد تعيشان ، أو فى بطن أىّ الأرض قد سُوِّى عليهما التراب؟

ابنتا البطريق المعظم ، جاريتان قد انقطعت بينه وبينهما الأسباب . . . يا له من الفجيعة فى ابنتيه ، ويا له من بذاءة بعض قومه ! . . .

قال أنسطاثيوس الصالح :

— هوِّن عليك يا قسطنطين ؛ فقد علم والله كلُّ رومى فى هذه البلاد بلاءك فى جهاد هؤلاء العرب ؛ فلا عليك من قول لم تحمل عليه إلا الغيرة !

* * *

وبويع أنسطاثيوس قيصراً ، فراح يحاول ما يحاول لتدبير أمر البلاد وتنظيم قوات الدفاع ، ولكن غارات العرب المتتابعة لم تدع له فرصة للتدبير ولا لتنظيم قوات الدفاع ، فنالوا منه ولم ينل منهم ؛ وتوالت هزائمه فى البر والبحر ؛ فاعتزل العرش إلى بعض الأديار حزيناً أسوان يلتمس فى الصلاة والدعاء بعض السلوان !

ووثب إلى العرش سوقىٌّ آخر كان جابياً للخراج فى بعض الأقاليم ؛ فلم تكن حال البلاد فى عهده خيراً منها فى عهد أسلافه ؛ واضطرب به الأمر وأحاطت به الأحداث . . .

وكان العرب وقتئذ يتأهبون للغارة الكبرى فى عهد سليمان ، تحت راية مسلمة ! . . .

* * *

كان سليمان بن عبد الملك فى بستانه ، قد رمى نفسه على الرمل بلا وطاء ، يبترد من حر ذلك النهار ، وإلى جانبه زنبيلان قد ملئا بيضاً وتيناً ، فهو يمد يده إلى زنبيل بعد زنبيل يأخذ من هذا ومن ذاك بيضه وتينة بعد بيضة وتينة ، حتى أتى على الزنبيلين وما شبع !

ثم ألزق بطنه بالرمل وهو يقول :

ـــ ما أحبَّ إلىَّ هذه المنامة وأبردها فى هذا اليوم القائظ !

ثم أتوه بغدائه : جدى مشوى كأنه عكة سمن ، ودجاجتان هنديتان كأنهما رألا النعام ، وعس يغيب فيه الرأس قد امتلأ حريرة كأنها قراضة الذهب ؛ ثم صُف بين يديه ثمانون قدراً مختلفة الألوان . . .

واعتدل سليمان فى مجلسه وأقبل على الجدى المشوى فأتى عليه ، ومال على الدجاجتين يأخذ برجل واحدة بعد واحدة فيلقى عظامها نقية ، ثم جعل يقلع الحريرة بيده ويشرب ويتجشأ كأنما يصيح فى جب ؛ فلما فرغ من ذلك مال على القدور الثمانين يكشف أغطيتها قدراً بعد قدر فيأكل من كل منها لقمة أو لقمتين أو ثلاثاً . . .

ثم مسح يديه واستلقى . . .

قال له مسلمة :

ـــ أمتعك الله يا أمير المؤمنين وأمتع بك ! . . .

ـــ ويلك يا مسلمة ؛ فهل عندك من جديد ؟

ـــ نعم ، فإن هذه الروم على ما ترى من الضعف واختلاف الأمر وهوان المنزلة ؛ ولم يبق ثغر من ثغورهم مما يلى بلادنا إلا وطئه جند العرب وجاسوا خلاله ، ولا حصن من حصونهم إلا شعثناه حتى تطامن من شموخ واستبيح بعد منعة ؛ وإنى أرى الأوان قد آن يا أمير المؤمنين للضربة التى تدك

حصونهم وأسوارهم وتبيح أرضهم وحريمهم وتعلى كلمة الله فى تلك الأرض الكافرة !

– وعتادك وجندك ؟

– على الأهبة يا أمير المؤمنين ، عشرون ومئة ألف فى البر ، ومثلها فى البحر .

– وسفن الغزو ؟

– ثمانمئة وألف سفينة تطاود الموج ولا تنطاد فوقها السحب !

– والنار الرومية يا مسلمة ؟

– لن تنال منا منالا يا أمير المؤمنين أو توهن لنا عزيمة !

– وتلك الأسوار المملّسة لا يقف عليها الذر ، الشامخة قد ركبتها السحب ؟

– سيفتحون لنا الأبواب طائعين حين يضرّ بهم الحصار ، فلا تكون أسوارهم هذه إلا سجناً لهم لا يملكون منصرفاً عنه !

– ولكن الحصار لا يضرّ بهم من قريب يا مسلمة ، وعندهم من الزاد والأقوات ، ومما يمدهم به أمم النصرانية فى الأرض الكبيرة، وما يعاونهم به البلغار من غلات بلادهم، ما يطول معه الأمد !

– سنصابرهم حتى ينفد المدخور ، وينكل الصبور ، ويتسلل الجبان، ويسأم الأعوان ، وينقطع المدد !

ــ وشتاؤهم الذى يجمد الأطراف ويوجب الكن ؟

ــ سنتخذ حول الأسوار بيوتاً كبيوتهم ، ومصانع خيراً من مصانعهم ، ونتخذها دار إقامة حتى يفتح الله علينا وتسقط فى أيدينا مدينة قسطنطين !

ــ وطعام الجيش وزاده ، والطريق إليهم طويل والبر موحش والبحر هائج ؟

ــ سيكون لنا هنالك زرع وضرع ، ومرعى وماشية !

ــ أراك يا مسلمة تحاول عظيماً من الأمر !

ــ كل عظيم يا أمير المؤمنين فأنت أعظم منه !

ــ الله يا ابن عبد الملك ؛ إنك لتنكر قدرك ، ولولا أن سبق إلىّ عهد أمير المؤمنين عبد الملك لكنت أحقّ بها وأهلها !

ــ ولكن الدولة عربية يا أبا أيوب ؟

ــ وأنت مسلمة بن عبد الملك !

ــ بل أنا ابن ورد !

ــ فهل ترى ولد عبد الله بن عمر قد نقص من قدره شيئاً أن أمه من بنات سابور ؟

ــ قدسمعتهم يمزحون فيقولون إنه أحق بعرش كسرى !

ــ فأنت إذن أحق بعرش قيصر !

ـ ها أنت ذاك قد قلتها يا أبا أيوب !

ـ والله لولا أنى لا أملك أن أخلع نفسى وأنضو قميصاً قد قمّصنيه خليفة رسول الله ، لرضيت طيّب النفس أن تجلس مجلسى على عرش عبد الملك ؛ وإنك لأعظم فى نفسى مهابة وأدنى إلى قلبى منزلة من ولدى أيوب !

ـ أمتعك الله به يا أمير المؤمنين حتى تبايع له بالعهد من بعدك ؛ إن أيوب ابن أمير المؤمنين لريحانة هذا البيت ، وإنى لأرجو أن يكون له شأن فى غده !

ـ طاب فألك يا أبا سعيد !

ـ وطاب عهدك ؛ إنك بأيوب لميمون الكنية ؛ فكأنى بك أردت أن يكون أبو أيوب الأنصارى أول من يبلغ أسوار القسطنطينية من المسلمين ، وأن يكون أبو أيوب الأموى أول من تفتح له بابها ، فيطأ بفرسه بساط قيصر ، ويحطم أصنام الشرك فى كنيسة أيا صوفيا ، ويجهر بالأذان فى أكبر بيعة من بيع النصرانية !

ـ طابت نفسى والله لحديثك هذا يا أبا سعيد ؛ وإنى لأرجو أن يكون ما قلت ؛ فخذ فى أسبابك منذ اليوم والله معك !

١٢

وفاء بذمة . . .

لو لم يسبق الأجل إلى ورد أم مسلمة لقرّت اليوم عيناً ؛ فسيبلغ مسلمة عرش قيصر ، ويطأ بساطه ، ويلبس تاجه ، وتدين له تلك البلاد جميعاً بالطاعة والولاء ؛ ولكنه يتلفت حواليه فلا يرى أمه ، ولا تراه أمه ؛ لقد فرغت من الدنيا قبل أن تكتحل عيناها برؤية ولدها مسلمة فى الموضع الذى كانت تأمل أن تراه فيه ؛ ولكنها إلا تره حية فستقر به عينها ميتة ؛ إنه لن ينكل أو يحور عن قصده حتى يتحقق له ذلك الأمل !

ولكن صورة أخرى تتراءى لعينيه : فتى عربى ، فى وجهه شحوب ، وفى عينيه زرقة وعمق ، ولصوته نبر عذب ، فيه مخايل من صديق له قد مات منذ قريب وغيّبته الصفائح فى البلد المحرم . . . وإلى جانبه امرأة منتقبة شابة تجول عيناها وراء ستر شفيف فتجدّ لها نظرتها ذكرى فلا يكاد يكف عن النظر إليها واستشفاف ملامحها وراء ذلك النقاب ؛ لا يخجله من ذلك أن ولدها الشاب إلى جانبها ، وأنها أرملة صديق قد مات منذ قريب . . .

تلك صورة قد رآها ذات مرة فى الحلم كأنْ قد أبصرها بعينين ، ثم سمع صديقه يقصها عليه كما رآها فوعاها بأذنين ؛ وها هى ذى تتخايل لعينيه الساعة يقظان فكأنما هى صورة فى إطار لا تزال تقع عليها العين مرة بعد مرة فلا تنكر من ملامحها شيئاً !

وتحضره إلى جانب هذه الصورة ذكريات أخرى وصور شتى وأحاديث متباينة ، فلا يكاد من اختلاط ذلك كله فى وهمه يحقق شيئاً مما يرد على خاطره . . .

لقد كان لأمه معه ذات يوم حديث ذو شأن لا يزال صداه فى نفسه ؛ فإنه ليذكره كلما خطرت القسطنطينية فى باله أو أزمع مع الروم حرباً . . .

وكان له ولصاحبه النعمان بن عبيد الله حديث آخر مع الراهب الشيخ فى الدير المنفرد فى أرض البلقاء ، لا يزال صداه يمترج بصدى حديثه إلى أمه . . .

وتلك الرؤيا . . .

ثلاث صور تتزاحم وتلتحم وتتماسّ أطرها فلا يبين منظر من منظر ، ولكن وراء اجتماعها صورة أخرى لم ترها عيناه بعد ... فلعله يراها أو يرى تأويلها حين يدخل القسطنطينية ظافراً على صهوة حصانه !

إن الحقيقة الناصعة التى ينشدها من وراء هذه المعميات قد تمزقت الصحيفة التى تقص خبرها ، فشطرٌ منها فى القسطنطينية وشطر فى يده ؛ فإذا لم يوافق هنالك شطرَ الصحيفة التى يجد فيها تمام ما يعلم ، فلابد أنه واجده عند الذين يتوارثون علم الملاحم من رهبان الروم فى بعض كنائس القسطنطينية !

* * *

وكان عتيبة بن النعمان فى لهو الشباب حين جاءه نعى أبيه ؛ فغمه ذلك غماً رده فى شبابه إلى الكهولة !

وبكت الأم العجوز ما شاءت أن تبكى ، فذكرته وذكرت أباه وذكرت أخاه عتبة ؛ ثم فاءت إلى الصبر والرضا بقضاء الله ؛ راجية فى حفيديها بشير وعتيبة ما كانت ترجو عند ولديها اللذين مضيا وخلفاها فى وحدتها هذه الموحشة تجتر ذكرياتها السعيدة والمؤلمة وأحزانها المتعاقبة !

وبكت زوجه حتى غارت عيناها وزادت نحولا وشحوباً ؛ وضاعف الحزن انقباضها عمن معها فى الدار فانطوت على ما فى نفسها من آلام يعرف منها من يعرف طرفاً ولكن سائرها لم يطلع على غيبه أحد !

وبكت نوار ؛ فقد كان النعمان أباها وعمها جميعاً ، وقد حمل على كتفيه عبء الثأر لأبيها فلم يزل ينشده فى كل مهلكة

حتى أدركه أجله . ثم إنه إلى ذلك كله أبو عتيبة . . . وحسبها ذلك سبباً إلى الحزن لا تغيض مدامعه ! . . .

وسفرت نوار عن وجهها منذ جاءها النبأ بمصرع عمها النعمان ، فقالت لصاحبها :

ــ قد مات أبوك يا عتيبة وعليه نذر لم يتهيأ له الوفاء به !

ــ نعم ، الثأر لأبيك برأس بطريق من بطارقة الروم ، أو الثواء تحت أسوار القسطنطينية فى ضيافة أبى أيوب !

ــ وتريد وفاءً بهذا النذر يا عتيبة ؟

ــ وأزيد عليه يا نوار أن آتيك بتاج البطريق وأخدمك ابنته !

وتضرجت وجنتاها وقد فهمت ما يعنيه ؛ فقالت وقد غضت من بصرها :

ــ الثأر أولا يا عتيبة !

ــ بل نذر أبى يا نوار ، أما ثأر أبيك فلولا نذرٌ مات النعمان ولم يف به لكان أخوك بشير جديراً بأن يحمل عبأه !

وساءها أن يعيِّرها بأخيها وضعف همته وإيثاره الدعة والبطالة ، ولكنها لم تغضب ؛ فقد سرّها أن يكون عتيبة بحيث أراد أن يصف نفسه ؛ فقالت :

ــ النذر والثأر جميعاً يا عتيبة ؛ فذلك ميراث أبيك !

ـ لو لم يكن ميراث أبي لكان أمراً من نوار واجب الطاعة ؛ وما يكون لى أن أنكص أو أروِّى فى أمرى يا ابنة العم ، لو أنك أمرتينى أن أثب إلى النار الموقدة لأقبس لك منها جذوة ملتهبة ، أو أخوض فى بحر من الدم لأخرج لؤلؤة حمراء ، أو أتطوّح فى مهاوى الريح لأرد إليك صدى أغنية عذبة ملأت نفسك فلا تريدين أن يفلت صداها فى الزمن !

ـ أكذلك أنت يا عتيبة ؟

ـ بل اسألينى يا نوار : أكذلك أنا فى نفسك يا عتيبة ؟

ـ وتكتم عنى ؟

ـ وأكتم عنك يا نوار ، ولكنك تعرفين وتصرين مع ذلك على الكتمان !

ـ ألم تكن تعلم . . . ؟

ـ كنت أعلم علم نفسى يا أخية ، وأهابك أن أسألك عن علم نفسك !

ـ فقد علمتَ اليوم !

ـ وقد علمتِ أنت يا نوار !

ـ ليتنى لم أعلم !

ـ هل ساءك إذن أن تعرف أننى أحبك !

ـ بل ساءنى أن أعلم حين أنت على أهبة الرحيل عنا يا عتيبة !

ـ ولكنك أنت التى تريد أن أرحل لأدرك ثأراً وأوفى نذراً و. . . .

ـ وماذا يا عتيبة ؟

ـ وأجمع مهراً يا نوار !

ـ ولكن بقاءك أحبُّ إلىّ !

ـ وأحبُّ إلىّ يا نوار ؛ ولكن الدم المطلول يطلب واتره !

ـ قد أخذ أبوك بوتره ، وقتل بأخيه رجالا وجندل أبطالا وأطاح برأس رءوساً !

ـ ولكنه لم يحمل إليك رأس بطريق وتاجه !

ـ ولكنى أخاف عليك يا عتيبة !

ـ فلست إذن أهلا لحبك يا نوار !

* * *

ثم انقلب عتيبة إلى حيث كانت أمه سبيكة :

ـ أمى !

ـ ولدى عتيبة !

إنى ذاهب !

إلى أين يا عتيبة ؟

ـ إلى حيث ذهب عمى ، وأبى !

ـ ولمن تدع أمك يا عتيبة ؟

ــ تعالى معى إن شئت ، فلن تقعد بى أمومتك عن الجهاد !

ــ ولكن الأمهات لا يصحبن أبناءهن إلى الحرب ؟

ــ فما هؤلاء النساء وراء كل جيش محارب ؟

ــ زوجات لأزواجهن ، وأخوات لإخوتهن ؛ يدفعنهم بحرارة الحب إلى الاستبسال فى النضال ليكسبوا الحظوة ؛ وما أنا وذاك يا عتيبة وقد جاوزت تلك المنزلة فليس إلىّ مشتاق ولا وامق ؟

ــ تعوّقيننى إذن ؟

ــ ولِمَه ؟

ــ لأنك . . . لست أدرى !

ــ بل تدرى شيئاً تحاول كتمانه ؟

ــ فلِمَ تعوّقيننى إذن ؟

ــ لأننى أمُّك !

ــ وكل هؤلاء المجاهدين لا أمهات لهم ؟

ــ ولأننى فى هذا الحى من العرب لا عم لى ولا خال !

ــ أراك لا تحاولين الكتمان !

ــ ماذا تعنى يا عتيبة ؟

ــ أنت تكرهين أن أشرع فى وجه الروم سيفاً !

ـــ ولِمَه ؟

ـــ لأن لك فى الروم عمًّا وخالا !

ـــ إننى أملك يا عتيبة !

ـــ قد علمت !

ـــ وذلك كل نسبى !

ـــ وترضين أن تنتسبى إلى جبان ، لا يخف لثأر عمه ، ونذر أبيه . . .

ـــ ومهر امرأته ! . . .

ـــ قد عرفتِ إذن ؟

ـــ ومن أجل هذا منعتلك يا عتيبة !

ـــ من أجل أنلك لا تحبين نوار !

ـــ بل إننى أحبها وأرى ولدى بها أسعد زوج !

ـــ ومن أجل ذلك تحولين بينى وبينها !

ـــ بل أحول بينك وبين اقتحام المخاطر من أجل امرأة ؛ ليست هذه البطولة !

ـــ فما البطولة إذن فيما ترين ؟

ـــ ألا تطيع فيما تكره ، امرأةً تحبها ؛ وأعلى من ذلك مرتبة فى البطولة ، أن تقسرها على طاعتك !

ـــ ولكننى لم أطعها !

— ففيم خروجك إلى الحرب إذن ؟
— وفاء بنذر ، وإدراكاً لثأر . . .
— وطاعة لأمر . . .
— بل عصياناً
— لأمرى ؟
— لأمر نوار !
— كيف ؟
— لقد منعتنى أن أخرج فعصيت !
— وى !
— وقسرتُها على طاعتى !
— لقد كان لك معها شأن يا عتيبة !
— نعم ، وسأعصيك كما عصيتها !
— تعصينى ؟
— نعم ، وأقسرك على طاعتى !
— وتقسرنى أيضاً ؟
— نعم ، لأننى أحبك يا أم !
— إنك لبطل يا عتيبة !
— لأنك أنت ولدتينى يا أماه !

ـــ بل لأن أباك النعمان !

وشرقت سبيكة بدمعها فأخفت رأسها فى صدر عتيبة وأجهشت باكية !

١٣
نفير الحرب !

أروح إلى القصّاص كل عشية
أرجّى ثواب الله فى عدد الخطا !

قالت العجوز الثكلى :

ـــ إنى لأجد ريح عتبة وأسمع رجع غنائه ؛ فانظروا لى من ذلك الذى يرجّع هذا الصوت وإنى به لبعيدة عهد !

قالت نوار :

ـــ ذاك عتيبة يا جدتى ، لا يزال منذ أيام يرجّع هذا الصوت كلما غدا على المسجد أو راح !

ـــ رحم الله أباه وعمه ، وبورك لى فيه وفى بشير ؛ لقد أذكرنى غناؤه أباك وعمك يا نوار ، إذ كانا يرددان هذا الصوت كلما غدَوا على المسجد أو راحا ؛ فإن هؤلاء القصاص الذين

يغشون مساجد المصر للوعظ والتذكير ورواية الأخبار والنوادر ، ليوهمون من يغشى حلقاتهم من الفتيان ، أن يوماً فى مجلسهم ذاك خير عند الله من سبعين صلاة ؛ فلا يزالون يجتذبونهم بهذا الخيط الدقيق حتى يلزموا حلقاتهم ، ثم لا يزالون ينفثون فى عقدهم من سحر القول حتى ينسوا بنيهم وبناتهم وزوجاتهم ووالديهم جميعاً ؛ ويسوقونهم إلى المنايا باسم الجهاد فى سبيل الله !

ودخل عتيبة خفيف الخطا ، فسمع ، فقال :

ــ ماذا تقولين يا جدة ؟ أحرام أن نغشى المساجد ، وأن نستمع إلى القصاص ، وأن نخرج مجاهدين فى سبيل الله !

ــ لم أقل هذا يا بنى !

ــ فما هذا الذى سمعت من قولك ؟

ــ لقد قلت إن فى عتيبة ملامح من أبيه ، ومن صوته أيضاً . . . وكان أبوك ينشد هذا الشعر إنشادك كلما غدا على المسجد أو راح . . . ثم ذهب إلى الميدان البعيد ، كما ذهب أخوه من قبل ، ولم يعد ؛ طار على جناح شاعر ، ثم وقع . . .

ــ ولكن عتيبة سيطير ، فلا يقع !

ــ لقد هممتَ إذن ؟

ـــ نعم !

ـــ وتعرف سبيكة أنك ذاهب لحرب الروم ؟

ـــ قد عرفتْ !

ـــ وطابت بذلك نفساً ؟

ـــ قد طابت نفساً ورضيت !

ـــ حسبتها تأبى أن يشرع ولدها سيفاً لحرب الروم !

ـــ ولمه ؟

. لأن . . . لأنها قد عرفت ما حرب الروم !

ـــ لم أفهم !

ـــ أعنى أنها كانت خليقة بأن تشفق عليك !

ـــ علىّ ؟ . . .

وعلى غيرك !

ـــ من تعنين ؟

ـــ رجوت أن تشفق أمك عليك وعلينا ، من سوء ما ينالنا به فراقك من القلق والوحشة !

ـــ بل عنيت معنى آخر يا أم !

ـــ أى معنى ؟

ـــ تسألينى ؟

ـ لقد ظننتنى أضمر وراء كلماتى معنى غير ما فسرتُ لك ، فسألتك . . .

ـ بل إنك لتضمرين معنى آخر ! . . .

وكانت نوار صامتة تستمع إلى ما يدور بين الفتى وجدته من حوار بدأ رفيقاً هيناً ثم أخذ يعنف شيئاً بعد شىء حتى أوشك أن يكون خصاماً ؛ فقالت فى رقة :

ـ إن جدتك لتعلم يا ابن عم ، ما تضم عليه أضلاعك من قلب كبير ، ولكنها تشفق عليك وتجزع لفراقك ؛ وإنك لتذكر ما قلت لك قبل أن تتحدث إليك جدتك ! . . .

فاعتدلت الجدة فى مجلسها ونظرت إلى نوار قائلة :

ـ هل قلتِ له ؟

ـ حاولت يا أم أن أحول بينه وبين ما اعتزم ، فلم يستمع إلى !

ـ أكذلك يا عتيبة ؟

ـ نعم !

ـ ورضيتْ ، أمك ؟

ـ كانت أدنى إلى الرضا من نوار ، ومنك !

ـ وأذنت لك أن تشرع سيفك لحرب الروم ؟

ـ وأذنتْ لى طيبة النفس !

— ولم يسؤها أن يفارقها ولدها إلى حيث تتوزعها الهواجس والهموم وتصطرع فى نفسها المخاوف ؟

— بلى ، قد ساءها ، ولكنها قد علمت أن ذلك حق البطولة على كل عربى !

قالت نوار :

— بل حق البطولة على كل أمٍّ عربية !

قالت الجدة :

— قد صدقت سبيكة وبرّت !

ثم أطرقت وهى تقول وقد جال فى عينيها الدمع :

— فاذهب مأجوراً يا عتيبة والله يكلؤك !

* * *

وقف عتيبة فى فناء الدار مشمِّراً حاسر الذراعين يشد متاعه إلى ظهر راحلته وهو ينشد :

وأشفق من وشك الفراق وإننى
— أظنُّ — لمحمول عليه فراكبه
فوالله ما أدرى أيغلبنى الهوى
إذا جدَّ جدُّ البين أو أنا غالبه
فإن أستطع أغلب ، وإن يَغلب الهوى
فمثل الذى لاقيت يُغلب صاحبه !

وكانت عينان دامعتان ترقبانه من وراء السجف حيث توارت فتاة موجعة القلب تراه وتسمع نشيده من حيث لا يراها أو يسمع نشيجها . . .

وبغتتها سبيكة فى موقفها ذاك ؛ فوضعت راحة على كتفها وهى تقول فى رقة وعطف :

ــ ما أنت هنا يا نوار وهو هنالك ؛ هلا تراءيت له لتشدِّ عزمه ساعة الفراق ؟

قالت الفتاه وأطرقت مستحية :

ــ خشيت أن يهن حين يرانى أو يرى فى عينىّ الجزع واللوعة !

وكان صوت آخر ينبعث من بعض غرفات الدار منشداً :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حَصانٌ عليها نظمُ درٍّ يزينها
نهته ، فلما لم تر النهى عاقه بكت فبكى مما شجاها قطينها !

ووضع الفتى ما كان بين يديه ورفع رأسه منصتاً ؛ ودلفت الجدة الثكلى إلى حيث كانت كنّتها أم نوار جالسة تدندن ذلك الشعر وهى ترتق ثوبها ، فقالت لها عاتبة :

ــ عهدك بالغناء بعيد يا أم بشير ؛ فهلا أشفقت اليوم على الصبىِّ والصبية أن يسمعا غناءك هذا ؟

قالت أم بشير ولم ترفع إلى العجوز عينين :

ـ وماذا قلت ؟ لقد كان ذلك والله أحبَّ الشعرِ إلى عتبة حين يزمع رحلة !

قالت الجدة وهى منصرفة قد ضاقت نفسها بما سمعت من جواب :

ـ فقد رحل عتبة ولم يعد !

وسكن الصوت ، فعاد الفتى ينشد وهو يعالج أحماله :

وأشفق من وشك الفراق . . .

وخفّت إليه نوار معجلة قد سوت ثيابها وجففت دموعاً فى عينيها ، ثم استقبلته قائلة وقد اصطنعت الابتسام والمرح :

ـ ماذا سمعت من إنشادك يا عتيبة ؟ هلا كان قولك لنفسك :

أشوقاً ولما تمض بى غـــير ليلة
فكيف إذا خبّ المطىُّ بنا عشرا ؟

قال ومد يدين إلى يدين والتقت عينان بعينين :

ـ بالله أعيدى يا نوار ، فقد وقعتِ على ما كان يهجس فى نفسى ولا تلفظه شفتاى !

واختلجت يداه فى يديها ، فدفعهما إلى كتفيها ومال عليها بوجهه . . . فأفلتت من بين يديه وهى تقول مؤنّبة :

ـ وكنتَ حريًّا أن تنشد :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم
دون النســـاء ولو باتت بأطهار !

وثبت إلى الدار وخلفته فى الفناء مبسوط اليدين قد ذهل عما حوله من الزمان والمكان والناس ؛ ثم ترامى على بعض ما ازدحم فى الفناء من المتاع وأخفى وجهه فى راحتيه !

* * *

الناس جميعاً فى شغل بالتهيُّؤ لتلك الحملة العظيمة التى يجهز لها مسلمة ؛ كل ذى قوة من شباب العرب يرجو أن يكون له شأن فى هذه المعركة ؛ إن أبا أيوب الأنصارى يدعو ضيفانه إلى المأدبة العظمى فى رحاب قيصر ؛ القصاص فى مساجد الأمصار قد تأطّر الناس حولهم حلقات حلقات يستمعون إلى قصصهم مشوقين يود كل منهم أن يطير إلى الميدان بجناحين ؛ الشباب والكهول يهيئون أنفسهم لرحلة طويلة المدى بعيدة الأمد ، قد احتقبوا ما قدروا عليه من زاد وعتاد وكسوة تصلح للشتاء والصيف ؛ نساء الأمراء والسادة ينفضن الطيب والحلى عن غدائرهن يجعلنها فى بيت المال أعطيات للجند ؛ الزوجات والأخوات يغزلن وينسجن ويخبزن ويقددن ليهيئن لأزواجهن وإخوتهن كسوة ثقيلة وغذاء طيباً يدفع عنهم برد الشمال القارس ؛ الأمهات يصلين ويدعون ويصنعن لأولادهن

الرُّقى والتمائم ؛ الكواعب الحسناوات – وغير الحسناوات – قد خط الدمع على وجناتهن خطوطاً لا تزال مبتلّة أبداً ؛ الصبيان والبنات فى فرح ومسرة بما يرون حولهم من مظاهر النشاط ، لا يكادون يدرون بما ينتظرهم من أيام القلق والهم والوحشة لغياب آبائهم والكبار من إخوتهم ؛ الأيامى والأرامل يبكين أزواجهن كأنْ قد فقدنهم منذ هنيهات ؛ الشيوخ قد ردّهم ما يرون وما يسمعون إلى الصبا وذكرياته فانطلقت ألسنتهم بالحديث عما خاضوا من المعارك المظفّرة فى الأيام الخالية وما أبلوا فى الجهاد وما حصّلوا من الغنائم وما حازوا من السبايا . . .

البادية الرحبة قد ازدحمت بالخلائق وانتثرت فيها خيام الجند فضجت وعجت ؛ ففى كل خيمة حديث بين اثنين أو بين جماعة ، ولا تزال أصداء الأغانى تتناوح بين المضارب تعبر عن ألوان من الإشفاق والرهبة ، أو من الشوق واللهفة ، أو من العزم والفتوة .

هذا فتى لم ينس آخر لياليه فى الحاضرة ، ينشد حرّان الفؤاد :

بنفسى من لو مرَّ برد بنـــانه
على كبدى كانت شفاء أناملـــه
ومن هابنى فى كل شىء وهبته
فلا هو يعطينى ولا أنا سائلـــه !

وذاك فتى آخر يستقبل أول أيام الفراق باللوعة ، فيغنى :

يطول اليوم لا ألقاك فيه ويومٌ نلتقى فيه قصير
وقالوا لا يضيرك نأىُ شهر فقلت لصاحبيّ : فما يضير ؟

وثالث يتهيأ للغارة قبل إبان الغارة ، فينشد :

وإنا لتصبح أسيافنا إذا ما اصطبحن بيوم سفوك
منابرهن بطون الأكف وأغمادهن رءوس الملوك !

ورابع قد خرج للغنيمة والتماس أسباب الخفض والدعة ، قد خلّف من أجل ذلك أهله وجيرانه ، فيقول :

لا يمنعنّك خفضَ العيش فى دعة
نزوعُ نفس إلى أهل وأوطان
تلقى بكل بلاد إن حللت بها
أهلا بأهل وجيراناً بجيران !

وآخر يجاذبه هواه وتصطرع الهواجس فى نفسه بين ما خلف من ألوان النعيم وما يستقبل من ألوان المشقة ، فيجذم حباله ويمضى إلى ما اعتزم منشداً :

. . . جَذّام حبل الهوى ماض إذا جعلت
هواجس الهم بعد النوم تعتكر
وما تجهمنى ليل ولا بلد
ولا تكاءدنى عن حاجتى سفر !

والسفائن مرسية فى الثغور تتأهب للإقلاع ، عليها الجند والعتاد والمتاع والزاد ، قد اختلطت فوقها الأحاديث وتنوعت الأمانى واصطرعت العواطف ؛ فعلى ظهر البحر كما فى البادية ، مُفارق حران الفؤاد ، ومشوق فى أول أيام البعاد ، وثالث يهيئ سيفه وترسه للدفاع والغارة ، ورابع يحلم بالغنيمة قبل أن يخوض غمار المعركة ، وخامس وسادس ، وفنون شتى من الخلق ، قد توزعت نفوسهم الهواجس ولكن أمانيهم جميعاً تلتقى عند غاية ، هى الظفر بالروم فى المعركة واقتحام مدينة قيصر !

وأذن المؤذن بالرحيل فتحركت الكتائب فى البر ، وأقلعت السفائن فى البحر ؛ وكانت قيادة الجيش لمسلمة بن عبد الملك...

وصحب الخليفة جيشه حتى بلغ أطراف الشام ؛ فأقام ينتظر بمرج دابق — على عدة مراحل من حلب — واستأنف الموكب سيره . . .

١٤
على شاطئ البرزخ

قال الفتى الرومى لصاحبه وقد اتخذا مقعديهما فى رأس الحصن المشرف على مضيق كاليبولى :

ــ هل جاءك النبأ يا لوكاس بما أعد العرب من عدة لحربنا ، وما حشدوا من الجند ، وما سيروا فى البحر من سفائن ؟

ــ ومن أين لى العلم بذلك يا موريس ؟ وماذا يجدى علىّ أن أعلم وإنى وإياك هنا فى وجه الغارة الأولى ، ليس معنا فى الحصن قوة تغنى فى صد العرب غناء أو تدفع بلاء !

ــ قد جاء العرب يا لوكاس فى ثمانمئة وألف سفينة ، على كل سفينة مئة جندى ؛ وزحفت على البر قوات تفوت الحصر ؛ فهل يطمع قومنا أن يصدوا هذه الغارة وليس على فم الخليج إلا بضع مئات من الجند قد تفرقوا فى بضعة حصون على الشاطئين ؟

ــ وإنهم يا موريس لعماليق أشداء ، قد تحصنوا من الموت بما لا أدرى من التمائم ؛ فإن الرجل منهم ليخوض المعركة

قد حطم غمد سيفه وألقى ترسه ، فلا يزال يخلى الطريق لنفسه بما يجندل من الأبطال حواليه حتى يبلغ حيث أراد ، لا يعنيه حين يبلغه أسلمت نفسه أم جاءه أجله حيث بلغ !

— وإن لهم يا أخى إلى ذلك صيحات مفزعة يهتفون فيها باسم ذلك الشيخ الذى اتخذوا له قبراً تحت سور القسطنطينية منذ خمسين سنة ، فلا يزالون يفدون إلى قبره ذاك كل صائفة ، يتبركون به ويعاهدونه عهداً لا أدرى ما هو !

— قد كان ذلك القبر شؤماً علينا منذ ثوى فيه شيخهم ذاك ؛ فهم لا يزالون يطرقوننا من يومئذ فيصيبون منا فى ذهابهم إليه وفى عودتهم منه ؛ ولا أدرى كيف لم يهدم قيصر هذا القبر ويعفى أثره حتى لا يظل هدفاً يطئون بلادنا فى الطريق إليه ذهاباً وجيئة !

— قد هم بذلك قسطنطين بوغونات ثم أمسك ، فقد جاءه الوعيد من ملك العرب أنه إن فعلها استباح العرب كنائس النصرانية جميعاً فى بلادهم ، فلا يتركون لنا ثمة بيعة ولا صومعة إلا هدموها !

— ولكن ما ينالنا من غارة هؤلاء الطرّاق أسوأ أثراً فينا مما أوعد به ملك العرب ؛ فما جدوى هذه الكنائس فى بلاد العرب وقد انحسرت النصرانية عن تلك البلاد فلم يبق إلا فلول

لا تساوى ما نتعرض له من الشر ببقاء ذلك القبر !

ـ أفلست تعلم يا لوكاس أن دفين ذلك القبر من أصحاب نبيهم وأصفيائه؛ وأن له عندهم منزلة من التعظيم قد تحملهم على الشر الفظيع لو ناله أحد بمهانة ؟

ـ وأى شر أفظع من هذا الذى ينالنا منهم يا موريس صائفين وشاتين ؟

ـ أنت لا تعرف العرب يا لوكاس !

ـ وتعرفهم أنت يا موريس ؟

ـ قد عرفت من أخبارهم ما لو عرفته لكففت !

ـ أتراهم مردة يقذفون من أفواههم اللهب المحرق ، ويحركون العاصفة الجائحة ، ويقتحمون الأسوار بغير أجنحة !

ـ أراك تسخر يا لوكاس ؛ فهل سمعت عن بشر يفطر بجمل ، ويتغدى بجمل ، ويتفكه بمئة رمانة ؛ فإذا قام من قيلولته دعا بطعام العصر ؟ . . .

ـ بل أنت الذى يسخر يا موريس !

ـ ذاك والله ملكهم سليمان الذى سيّر إلينا هذه الجحافل بقيادة أخيه !

ـ ما أحراهم بأن يأكلونا إذن ؟

ـ إنهم لا يأكلون لحوم الموتى !

ـ يموتون إذن تحت أسوار القسطنطينية جوعاً ؛ فليس هنا ما يكفيهم من الطعام إذا أرادوا حصار المدينة .

ـ أرأيت الجاموس الأسود ؟

ـ أىّ جاموس ؟

ـ نوع من الحيوان كالفيلة ، لا يقطع السكين فى جلده ؛ يطأ بحافر ، وينطح بقرن ، وينظر بعينين ليس فيهما بياض ، ولا يزال يجترّ كالمعزى . . .

ـ وما أنا وذاك ؟

ـ لقد جلبوا منه آلافاً ، فسمّنوها فى مروج الشام ؛ ثم ساقوها معهم إلى الميدان !

ـ يريدون أن يحاربونا بالجاموس ؟

ـ لست أمزح يا لوكاس !

ـ فماذا إذن ؟

ـ يتخذون من لحومها وألبانها طعاماً !

ـ ومن أين لهم هذا الجاموس ؟

ـ جلبوه من الهند !

ـ وأين هم من الهند ؟

ـ إن الهند قد صارت منذ بعيد ـ يا أبله ـ تحت حكم العرب !

ـ قد غلب العرب إذن يا موريس وملكوا حاضرة قسطنطين !

ـ أراك انهزمت من أول جولة يا لوكاس !

ـ وماذا تجدى المقاومة ؟

ـ لو كان العرب يحاربوننا بهذه الروح ما انتصروا قط !

ـ تريد أن أقاوم بلا غاية ؟

ـ نعم ، حتى تموت !

ـ ويكتب فى لوح على قبرى : مات منتصراً ؟

ـ ليس ذلك كل شىء ؛ إن الحياة المجيدة لا توهب للجبناء !

ـ لست جباناً !

ـ معذرة ، لم أقصد إساءتك !

ـ فما قصدتَ إذن ؟

ـ إن الذى يكافح عن حقه حتى يموت ، يهب حياة لكثيرين من ورائه ؛ لأن كل طعنة تناله ، كانت مسددة إلى واحد ممن خلفه ؛ فتلقّى عدة طعنات عن عدة أحياء ومات موتة واحدة ؛ فقد ربحتْ صفقته إذن ؟

ـ وما النتيجة ؟

ـ أراك لم تفهم بعد !

ـ ولا أظن أحداً يفهمُ أن الموت صفقة رابحة !

ــ زِن حياتك بحياة الجماعة !

ــ وهل ترى الجماعة تستطيع إحيائى إذا فاضت نفسى ؟

ــ ولكنك باستماتتك تستطيع أن ترد الجماعة إلى الحياة !

ــ منطق غير مفهوم !

ــ ولكنه بعض إيمان العرب !

ــ حَمق !

ــ ولكنهم انتصروا بحماقتهم هذه يا لوكاس ، وذلّ الروم!

١٥

تميمة رومية !

لم تكن سبيكة قد نضجت نضج الأنثى ولا رشدت رشد العقل يوم احتملها النعمان سبيَّة ، ولكنها إلى ذلك كانت مدركة واعية ؛ فقد علمت منذ ساعة الوهلة أن ذلك آخر العهد بأهلها ووطنها فلن تراهم ولن يروها أبداً ؛ أليست تعلم علم الناس مما يدور حولهم من أحاديث ؛ أن أختاً لها قد احتملها الغزاة منذ بضع وعشرين سنة فذهبت ولم تعد ، قد غاب أثرها وضاع خبرها فلا يكاد يذكرها أحد إلا أبوها المرزَّأ وأمها

الثكلى ؛ وكانت أختها إلى ذلك فتاة قد نضجت ورشدت ، وكانت حقيقة لو أنها ملكت حريتها أن تحاول المعاد !

بلى ، وقد مضت بضع وعشرون سنة أخرى منذ احتملت هى إلى بلاد العرب ؛ فهل يذكرها اليوم أحد من أهلها ، إلا أبوها الشيخ إن كان فى الأحياء ، وإلا أمها . . . وإن سبيكة لتملك اليوم حريتها ، ولكنها لاتحاول أن تعود ولا تريد ؛ لقد انقطع ما بينها وبين الماضى فلا تمتُّ إليه بسبب ؛ إنها اليوم امرأة عربية مسلمة، تمتُّ إلى هذه الجماعة التى تعيش بينها بأسباب كثيرة ، وتربطها إلى ما حولها ومن حولها عواطف شتى ؛ أما تلك التى احتملت من بلادها منذ بضع وعشرين سنة فكانت فتاة لا عربية ولامسلمة ولا أمًّا . . .

ذلك هو الشعور الذى يملأ نفسها اليوم فيزحم كل ما عداه من صور وذكريات ؛ فما بالها لا تزال من حين إلى حين تنىء إلى ركن من دارها فتفض ختم حقيبتها فتنثر ما فيها من مخلَّفات ذلك الماضى تتملاه وتشمه ثم تبكى ما شاءت؟ . . .

وما بالها لا تزال كلما سمعت ناعياً ينعى حبيباً إلى أهله، رفرفت بجناح وجاوزت المكان والزمان إلى حيث كانت تعيش فى بلد بعيد بين إخوتها وأخواتها ، تريد أن تحصيهم عداً وتتصفحهم فرداً فرداً ؟

وما بالها لا تزال تستطلع طلع كل قادم من سفر ، وكل عائد من غزاة ، وكل مبحر فى صائفة ؟

ولكن ما بالها — مع ذلك — قد طابت نفساً ورضيت بخروج ولدها إلى حروب الروم ؟ وما بالها قد شحذت له أمضى سيوف أبيه حداً وأومضها صفحة ؟ وما بالها قد رضيت له نوار زوجاً يمهرها رأس بطريق من بطارقة الروم ؟

ثم ما بالها قد دفعت إليه حين مسيره تلك التميمة التى كانت قلادة صدرها صبية ؛ ليحرزها فتحرزه . . . وتلك الجوهرة التى كانت زينة مفرقها طفلة ؛ ليذكرها بها وتذكره ؟...

أعن وعى دفعت إليك ذينك الأثرين من آثار ماضيها أم دُفعت إلى ذلك بلا وعى ولا إرادة ؟ وكيف تحرز مسلماً تميمةُ رومى لا يؤمن بدين محمد ؟ وكيف تُذكره إياها جوهرةٌ لم يرها فى مفرقها قط ؟ ألا تزال نفسها تنازعها إذن إلى دين ووطن غير هذين الدين والوطن ؟

* * *

وعبر على الطريق — وهى فى خلوتها — حاد ينشد :

تعزَّ بصبر ، لا وجدِّك لا ترى
سنامَ الحمى أخرى الليالى الغوابر

كأن فؤادى من تذكّرِىَ الحمى
وأهلَ الحمى، يهفــو به ريش طائر

فهتفت بلا وعى :

ــ ردوه علىَّ !

ثم أخفت وجهها فى راحتيها وأجهشت باكية. !

وكان عتيبة فى تلك اللحظة خالياً بنفسه كذلك فى خيمة من خيام الجند يقلّب بين يديه قلادة وجوهرة، ولكنه لا يذكر من أمر صاحبتهما شيئاً ؛ فقد كان خياله مفعماً بصورة أخرى قد ملكت عليه حسه ونفسه وفاضت معانيها شعراً على لسانه ودموعاً فى عينيه . . .

أترى نوار تذكره الساعة كما يذكرها ؛ وهل يعود إليها كما أملت ، قد حصّل لها مهراً وأدرك ثأراً ووفى بنذر ؟

ولم يجد عتيبة جواباً سريعاً لسؤاله ؛ فقد مثل بباب الخيمة فى تلك اللحظة حرسىٌّ من حاشية مسلمة يدعوه إلى لقاء الأمير . . .

وأعجله الطلب عن حفظ ما كان فى يده من خرزات أمه ؛ فمضى إلى لقاء الأمير وما تزال فى يده . . .

وهش الأمير للقائه وبسط له وجهه ومجلسه ، وغدا عليه يسأله عن حاله وخبره ومن خلف وراءه فى الرقة من أهله ؛ وأقبل عليه الفتى يجيبه عما يسأل منبسط النفس غير متكلف ،

ويده تعبث لما استند إليه من الطنافس المثمنة فى مجلس الأمير ؛ وأفلت شيء كان فى يده فتدحرج على البساط ، فأدركه فى حركة سريعة قبل أن يبعد . . .

قال الأمير متلطفاً :

ــ ما هذا فى يدك يا عتيبة ؟

ــ خرزة دفعتها إلىّ أمى حين مسيرى ، ترجو أن تكون لى تميمة وحرزاً . . .

ومد الأمير إليه يداً فحاز القلادة والجوهرة يروزهما بأصابعه لمساً وبوجهه نظراً وشمًّا ، ثم دفعهما إلى الفتى وهو يقول فى صوت ينم على انفعال :

ــ أحرزهما يا عتيبة واحرص عليهما ، فإنهما بعض آثار أمٍّ برّة!

ثم أنغض الأمير رأسه وتزاحمت على عينيه صور شتى . . .

ولم يطل بالفتى مجلسه ؛ فنهض إلى خيمته يشيعه الأمير بعينين فيهما إشفاق وحب ورحمة !

١٦

عرش يهتز ...

التقت قوات الغزو البرية والبحرية على جانبي مضيق كليبولى ، ثم لم يلبث الجند أن وثبوا من شاطئ إلى شاطئ فإذا هم تحت أسوار القسطنطينية ؛ لم يلقوا كيداً ولم يعترض سبيلهم أحد ؛ فحطوا رحالهم فى ذلك الوادى الأفيح وأخذوا يقيمون المضارب وينصبون الخيام ويعدون العدة لإقامة طويلة المدى ، قد أقسموا لا يعودون إلى أهليهم وديارهم إلا إذا فتحوها ووطئوا بساط قيصر وأذّنوا فى كنيسة الروم وأقاموا الصلاة . . .

ونصبت للأمير خيمة من ديباج على شرف من أرض الوادى ، وبسطت فيها البسط وانتثرت الطنافس ؛ ثم أقيمت مضارب الجند حيث رسم الأمير . . .

ووقف مسلمة يخاطب جنده :

« أما بعد حمد الله والصلاة على نبيه ، فإنا لم نقطع هذه البرية ، ونتجشم هول ذلك البحر ، من أجل غارة نغيرها ثم نثوب قد احتملنا أسارى وسبايا وحصّلنا غنائم وتركنا على أديمها

صرعى وجرحى من الروم ، كما كنا وكانوا فى كل صائفة وشاتية ؛ فقد كان ذلك كله تمهيداً لهذه الغارة العظمى لتحطيم عرش قيصر ودك معاقله ونشر كلمة الله فى بلاده ؛ فلا معاد إلى دياركم وأهليكم إلى أن يُفتح لكم ، وإلا فاعتقدوها هجرة إلى دار أبى أيوب لا تبرحونها حتى يبعث الله الموتى !

« الفتح أو الشهادة ، لا غاية وراءهما ؛ فهيئوا أنفسكم لإحدى الغايتين . لا تنازع أحدكم نفسه إلى أهله وزوجه وولده ، أو يحن حنين النيب إلى أعطانها ؛ فلا وطن لكم إلا ما أنتم فيه ، فاتخذوه مقاماً حتى يأذن الله بالفتح ! . . .

« ألا وإن الروم قد حصنوا أسوارهم وملّسوها وطاولوا بها حتى لا مطمع لناقب أو متسلق أو واثب ؛ فلتدعوهم سجناء وراء أسوارهم هذه لا يدخل إليهم داخل ولا يخرج منهم ؛ فإن ذلك خليق بأن يقطع عنهم الزاد والعتاد والمدد حتى يبلغ منهم الجهد فيطلبوا السلامة ويُلقوا السلاح ويُفتح لكم !

« ألا وإن مقامكم على هذا سيطول حتى ينفد ما عندهم من ذخر ؛ فلا يمسس أحد منكم طعاماً أتى به من هنالك ؛ والتمسوا الرزق مما يليكم من هذه القرى الرومية ، ودونكم هذه الأرض البكر فاحرثوا وابذروا وثمّروا ؛ وقد جلبت لكم قطعاناً من الجاموس والإبل والضأن للحرث واللبن واللحم ودفء الشتاء .

ولا تطل إقامتكم فى هذه الخيام حتى يفجأكم البرد ويسد الثلج عليكم أبوابها ؛ فدونكم هذه الغابات فاقتطعوا من أشجارها واتخذوا بيوتاً من خشب تجعلون فيها متاعكم وتأوون إليها كما يأوى كل ذى دار إلى داره ، واحتفروا العيون واستنبطوا الآبار تروون منها وتسقون الزرع والضرع . . .

« أيها العرب ، إن أظفر الطائفتين فى هذه المعركة أصبرهما ؛ فلا عليكم من طول المقام ما ضمنتم الظفر فى العاقبة !

« أيها المهاجرون إلى الله ، لقد خلفتم طائعين دياركم وأهليكم إلى مدينة أبى أيوب ، فتربصوا فى دار هجرتكم هذه بعدوكم حتى يأذن الله لكم أن تلقوهم بيوم كيوم بدر ! »

وتفرق جند العرب فى الأرض الفيحاء على استدارة القوس من أسوار القسطنطينية ، قد اتخذوا بيوتاً ، وفلحوا أرضاً ، واستنبطوا آباراً ، واستنبتوا مراعى ، وأنشأوا حظائر ، ومهدوا سككاً ، واستوطنوا استيطان من لا يفكر فى الرحيل !. . .

وكانت غاراتهم لا تزال تبغت القرى الرومية على الشاطئين فتصيب مغانم وتعود إلى بيوتها ظافرة ، قد أضافت إلى ما ادخرت من الزاد والعتاد ذخراً جديداً ، وزاد العدو جهداً على جهد !

ومضى عام وأهلّ عام ولا يزال جيش مسلمة يحاصر القسطنطينية ، حتى جهدت جهداً شديداً وأوشكت أسواقها

أن تقفر من الطعام وضاق أهلها بالحياة . . .

وبلغت الحال فى بلاد الروم من الفوضى والاختلال مبلغاً حمل القيصر على اعتزال الملك ؛ وخلا عرش القسطنطينية من قيصر ، فراح الأمراء والبطارقة وقادة الجند يتواثبون كالضفدع حول العرش ، يأمل كل منهم — بلا كفاية — أن يكون قيصراً . . .

وكان إليون المرعشى « الإيزورى » رأس الفتنة ؛ وهو رجل من غثاء الناس ليس له جذر يمتُّ به ؛ كان أبوه إسكافاً يصنع النعال ، فنشأ كما ينشأ ابن كل إسكاف ؛ ثم اتجر فى الماشية فأثرى وجمع مالا ، ثم اصطنع كما يصطنع الأثرياء بطانة وحاشية فصار سيداً فى رعية ، ثم رأى اختلال الأمر فى الدولة فحبب إليه أن يكون قيصراً . . .

ولم يكن له مطمع فى رضا قومه من الروم ، فصار له مطمع فى رضا العرب ؛ فأوى إلى سليمان بن عبد الملك وأخيه مسلمة يؤامرهما على تحطيم قوات الدفاع الرومية لتخلص البلاد للعرب وتخلص له رياسة الروم ؛ ووثق به مسلمة فأسلم إليه بعض الأمر !

وبلغ الجهد بأهل القسطنطينية ما بلغ ، فاستعانوا البلغار والروس وأهل رومية ، ولكن هؤلاء كانوا فى شغل بأنفسهم عن معونة غيرهم . . .

وأخذ الوهن يدب فى قوى الروم ، فلم يجدوا بدًّا من

النزول على شرط العرب ؛ فبعثوا إلى مسلمة فى وقف القتال وفك الحصار ، على أن يؤدوا إليه الجزية عن كل رأس ديناراً ، وأن يوفد إليهم إليون الرومى ليفاوضوه فى شروط التسليم ؛ فأجابهم مسلمة إلى ما طلبوا وأوفد إليهم صاحبهم . . .

* * *

« ما أجدر هذا الرومىّ أن يشرح الله صدره للإسلام فيكون أخاً معيناً ووزيراً ناصحاً ! »

كذلك قال مسلمة لنفسه وقد ذهب إليون إلى قومه ليفاوضهم فى شروط التسليم ؛ فبمعونة هذا الرومى الطيب النفس يقرع مسلمة اليوم أبواب القسطنطينية ، وهو — لا شك — داخلها غداً ؛ فيطأ بلاط قيصر ، فيجلس على عرش قسطنطين ، فيجهر بالأذان على هذه الأسوار المنيعة ، فيؤم جنده فى الصلاة بأيا صوفيا ، فينشر كلمة الله من ثمة فى الأرض الكبيرة ، فيمضى قُدماً حتى يطأ رومية ، ويجوس فى بلاد إفرنسه ، وينفذ إلى الأندلس من المشرق ، ويقف على شاطئ الأقيانوس الأخضر مثل موقف عقبة بن نافع منذ سنين . . .

« ذاك والله كله بفضل إليون المرعشى . وإن فى الروم لذوى أعراق طيبة وإن كان آباؤهم من ذوى المهنة ! »

ردد مسلمة هذه العبارة كذلك فيما بينه وبين نفسه ؛

وكأنما ذكر فى هذه اللحظة أمه ورد ونسبها فى بلاد الروم، فحنّ عِرق إلى عرق !

واسترسل إليون فى محادثاته مع القوم ، وطالت غيبته ؛ واسترسل مسلمة فى أوهامه . . .

وكان الجند فى مضاربهم ، أو فى بيوتهم ، يديرون بينهم ألواناً من الحديث يتصل أكثرها من قريب أو من بعيد بهذه السفارة التى دعا إليها الروم وخف لها إليون وهش لها مسلمة !

قال ابن جبير العبسى مغتبطاً :

ــ أين نحن اليوم وأين نكون غداً ؟

قال ابن هبيرة :

ــ وأين تكون إلا وراء مسلمة ؟

قال العبسى :

ــ فذلك ما أردتُ يا ابن هبيرة !

ــ اسكت ! فوالله ما تعلم ولا يعلم مسلمة ما يخبئه الغد !

ــ وتعلم أنت علم الغد يا ابن هبيرة ولا يعلمه مسلمة ؟

ــ قد كان له ذلك لو كان ابن حرة !

هبَّ عتيبة بن النعمان واقفاً قد اخترط سيفه وهو يصيح :

ــ أمسك عليك يا ابن هبيرة ؛ فإنه لأعرق نسباً وأعلى أرومة من كل بنى مروان ؛ فإلا تكن أمه من عبس ومخزوم

وأمية ، فإنها إلى الذروة من بنى الأصفر !

قال ابن هبيرة ولم يتحلحل عن موضعه :

— هوِّن عليكِ يا ابن أخى ؛ فإنك لتقف منى موقفاً يستحيي منه أبوك — غفر الله له — وما أردت أن أتنقص مسلمة ؛ ولكنى أعيب عليه أن يركن إلى رجل من أهل الغدر والنفاق قد باع أمته للعدو ؛ فما أجدره أن يغدر بنا كما غدر بقومه !

— وترى ذلك يغيب عن فطنة مسلمة ؟

— إن لكل فطن غفلة تأتيه من قبل أبيه أو من قبل أمه ، قد تدسست فى العرق وخالطت الدم . . .

— ومن أين لك أن مسلمة قد غفل عما فطنت له ؟

— لقد أتيته أحدثه عن ذاك ، فإذا هو قد تغدى وملأ بطنه ونام ، فانتبه وقد غلب عليه البلغم ؛ فحدثته وما أراه قد سمع شيئاً مما قلت أو درى بى ؛ وما ذاك والله وقت يملأ فيه الكيِّس بطنه وينام !

— أفلست تعيب عليه يا ابن هبيرة إلا أنه قد أكل ونام؟

— إن الأحمق يا ابن أخ من يملأ بطنه من كل شيء يجده ، وأحمق منه من ينام والحوادث ترقبه بعيون يقظة !

— غدا ترى عاقبة أمره وأمرك يا ابن هبيرة !

— إن كان وعيداً يا ابن النعمان فقد والله جاوزتَ قدرك ،

وإن كان أملاً تأمله فإنى والله لآمله على حذر وتخوّف !

ــ ومم تحذر ؟

ــ تدبير ذلك الكلب إليون ؛ فما أظنه الساعة إلا يؤامر الروم على الكيد لمسلمة وقد ملأ مسلمةُ بطنه ونام !

* * *

ورجع إليون منذ الغد إلى مسلمة يعرض عليه ما انتهى إليه رأيه ورأى القوم ، قال :

ــ إن الروم أمة محاربة يا أمير منذ التاريخ البعيد ، لم تضع سيفها قط منذ كانت ولا رضيت الدنيّة ، وقد أدال الله لكم منها فغلبتم خلفاء قسطنطين على أرضهم وديارهم ورعاياهم فى سائر فجاج الأرض ؛ ثم جئتم تطلبون هذه الحاضرة ، فكأنْ قد دانت لكم كما دانت الممالك وأسلمت مفاتيحها ، فقد بلغ منهم الجهد ما رأيتُ بعينى وما لا أظنه قد غاب عن فطنة الأمير ، فلولا أنهم أهل مصابرة لأسلموا إليكم منذ بعيد ؛ ولكن عيونهم ما تزال تطلع عليكم حيناً بعد حين فيرون ضخامة ما اختزنتم من الزاد والعتاد وما لا يزال يرد إليكم من ذلك ؛ فيقولون لولا أنكم ترون أجل الفتح بعيداً وأن دونه مصاعب وأهوالا لما أسرفتم فيما تجمعون من هذه الأقوات ؛ وإنهم إلى ذلك ليخشون ــ لو أسلموا إليكم ــ أن يقع عليهم حيف فى

المعاملة كما يصف لهم بعض رواة الأخبار . . .

— وبم يُرجف هؤلاء يا إليون ؟

— يزعمون أن العرب لم يدخلوا بلداً — عنوة أو صلحاً — إلا استرقُّوا الرجال واستبوا النساء وهتكوا الستور واستولوا على الأعلاق وأذلوا السادة واحتملوا كل ما فى البلد من قوت وزاد ، فلا يجد أهله ما يحفظ عليهم أرماقهم !

— وترانا كما يصفون يا إليون ؟

— إن العرب ما علمتُ — يا أمير — لأهل وفاء وذمة وشرف ودين !

— فماذا يرون إذن ؟ وماذا ترى أنت ؟

— أرى الثمرة قد دنت وحان قطافها ، ولكنكم إن تدخلوا القسطنطينية بالقهر والغلبة لا تجدوا فيها من السلام والطمأنينة ما يحبِّب إليكم الإقامة ؛ فهلا دخلتم أصدقاء يا أمير ؟

— وأين لنا ذلك ؟

— أن تحملوهم بديًّا على اليقين بأن المدينة طوع أيديكم ، فتتخففوا من هذا الزاد الذى جمعتموه ركاماً بعضه فوق بعض ؛ فإنهم إن رأوا هذا الزاد قد أزيل عن موضعه أيقنوا أنكم قد أزمعتم الاقتحام ، فتخور عزائمهم ويفتحون الأبواب !

وأخرى أيها الأمير ؛ أن يكون تخففكم من هذا الزاد باباً

إلى اكتساب مودتهم واطمئنانهم إليكم ، فهبوا لهم منه ما يدفع عنهم الجوع ويحفظ عليهم الرمق ، فإنهم حقيقون بأن يحفظوا هذه اليد فيشكروها لكم ، فتدخلوا المدينة حين تدخلونها قد أمنوا وأمنتم وطابت نفوسهم وطبتم !

ــ وآمرتهم على كل ذلك يا إليون ؟

ــ ووافقونى على كل ما عرضت عليهم باسمك من شروط التسليم ؛ وآية بيننا أن ينبئهم أصحاب الأخبار أنكم قد تخففتم من الأزواد أو جُدتم عليهم ببعضها !

ــ لك ما اشترطت يا إليون ؛ فاحمل إليهم ما شئت ودعنى وأصحابى نعدّ العدّة للنقلة إلى ما وراء هذه الأسوار !

١٧

دسيسة العرق !

ــ والله لا يقع فى مثل هذه الغفلة ابن حُرة !

ــ كذلك قال ابن هبيرة قبل أن تقع الواقعة ونرى أنفسنا فى هذا القفر لا زاد لنا وقد أخذتنا سيوف الروم من كل جانب !

ــ ذلك الكلب الغادر إليون . . .

ــ بل قل : ذلك الأبله ابن ورد ؛ لقد خدعه ذلك الكافر خديعة لو كان امرأةً لعيب بها !

ــ ونال بها إليون عرش قسطنطين !

ــ ونلنا بها ما نلنا من الهوان والضعف والمذلة ؛ وما أرانا غداً إلا هالكين جوعاً وبرداً فى هذه القفرة المثلوجة !

ــ وا أسفا ! لقد كان مسلمة ــ فيما أرى ــ أسدَّ بنى مروان رأياً وأخبرهم بفنون الحرب !

ــ وما هى الحرب إلا السياسة والتدبير ونصب الفخاخ وتوقِّى المهالك ؟

ــ وإنه لكذلك ، لولا ما تدسَّس إليه من أمه الرومية ؛ فكأنما حنَّ العرق إلى العرق فاستنام إلى وعدٍ غادر !

ــ أتذكر حين أنشد عبد الملك بين يدى مسلمة وإخوته فى حلبة السباق ذات غدوة :

نهيتكمو أن تحملوا فوق خيلكم هجيناً ... ... ؟

ــ نعم ، وقد تناقلها الناس يومئذ وقالوا : ما أنصف عبد الملك مسلمة !

ــ كأنما كان عبد الملك يرى بظهر الغيب هذا الذى نحن فيه من شر ، بسوء تدبير مسلمة !

ــ وقد أخذه سُعار الغيظ مما ناله ونال جنده ، فلم يأذن

بالرحيل وفك الحصار وتسريح الجند ، كأنما خيل إليه – بعد الذى كان – أنه مستطيع فى هذه الغزاة أن يفتحها !

– بجند قد هُزلوا من الجوع ، وارتجفوا من البرد ، وأثخنوا من رمى العدو الذين استردوا جأشهم وثابت إليهم عزيمتهم !

– قد أبرد بريداً إلى سليمان بمرج دابق يطلب مدداً من زاد وعتاد !

– وحتى يبلغ البريد ويجئ المدد يصبر العرب على الجوع والبرد والنار الرومية تحت هذه الأسوار ؟

– أظننت أن نفتح القسطنطينية بلا جهد ؟

– فقد بذلنا من الجهد ما لا قدرة عليه لبشر ، حتى دنت الثمرة ؛ ثم أفلتها مسلمة بحمقه !

– ذلك تقدير العزيز العليم !

* * *

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك لا يزال منذ عام وعام قبله مرابطاً بمرج دابق على الطريق إلى بلاد الروم ، قد أقسم لا يبرحها إلى حاضرته حتى يأتيه الفتح أو يدركه الأجل. . .

وكان البريد يتوالى عليه يوماً بعد يوم بما بلغ العرب من أسباب النصر وما نال الروم من الجهد والإعياء ؛ فلا يزال يصلى ويدعو الله أن يعجل بالفتح ، وقد خيل إليه أن ليس بينه

وبين ما أراد إلا غلوة سهم ، وأنه لولا حرص مسلمة على دماء المسلمين أن تراق لاقتحمها ووطىء بساط قيصر منذ بعيد ! . . .

ثم جاءه النبأ بما آل إليه الأمر وما بلغ الروم من العرب بالمكر والخديعة ، فحوقل واسترجع وامتلأت نفسه همًّا ، ولكنه لم ينكص على عقبيه وأصر على أن يبر قسمه ذاك ؛ فحشد الحشود وكتّب الكتائب وجمع الأزواد وأعد العتاد ، وسير ذلك كله إلى مسلمة فى البحر وفى البرية . . .

وكان الجوع والبرد قد أضرا بالعرب ضرراً بليغاً ، حتى التمسوا أقواتهم من ورق الشجر وعشب البرية ودواب البحر ، ولولا أن تراب الأرض لا يستساغ لسفُّوه سفًّا ليردوا الجوع عن أنفسهم وينسأوا به آجالهم !

وكأنما شحذت هذه الخيبة عزيمة مسلمة ، فصابر ورابط مقاوماً كل ما يكتنفه ويكتنف أصحابه من أسباب الهلكة ، فلم يفك الحصار عن المدينة أو يتخل عما اعتزم !

وكان أصحابه يموتون كل يوم مئات ، صرعى الجوع والبرد منهم أكثر من صرعى السيوف والسهام والنار الرومية ، ولكن مسلمة لم ينكل . . . ولا يزال أصحابه يطيعونه والموت يتخطف إخوانهم من حولهم جماعات جماعات يبلغون الآلاف ، والمدد الذى أرسله سليمان لا يزال على الطريق !

وكان سليمان مما نال مسلمة ونال المسلمين معه فى همٍّ دائم بالليل والنهار ؛ وزاده همًّا أن ولده أيوب الذى كان يرجيه لولاية عهده قد اختضره الموت شابًّا فى ريعانه ؛ فبكى سليمان وقال : الآن لا يدعون أيوب ولا أبا أيوب !

ثم لم يلبث أن لزم فراشه ، ودبّ إليه الموت !

وكان عهده ، بعد ولده أيوب ، إلى ابن عمه عمر ابن عبد العزيز بن مروان . . .

* * *

وقال الخليفة عمر وقد جلس فى ديوانه :

ــ ردّوا على الشام هذه الفلول المبعثرة فى البر والبحر من جيش مسلمة ؛ إن لتلك المدينة موعداً لم يحن بعد ؛ وإنى لأخاف أن يأتى الجوع والبرد عليهم جميعاً فتكون جريرتها على رأس عمر !

وخبَّ البريد إلى مسلمة بالنبأ ، وسيقت إليه الركائب فى البر والبحر لتحمل من معه إلى الشام !

١٨
على حافة الموت

ـــ أكذلك تكون عاقبتها ؟

قالها مسلمة وأطرق، قد امتلأ قلبه غمًّا وحقداً ومرارة ، أما الغم فلهذه العاقبة التى انتهت إليها الغزوة العظمى التى كان يهيئ لها منذ سنين ، ليبلغ شأوًا لم يبلغ مثله واحد من بنى عبد الملك حين لا يجد بنو عبد الملك ما يطاولونه به غير خئولتهم ؛ وأما الحقد فعلى هؤلاء الروم وقيصرهم ذاك الخسيس الذى أذله بالمكر والخديعة ونكث العهد ، وخذله حين أمن له ووثق من مودته وأسلم إليه قياده ؛ وأما المرارة فلأنه ابن امرأة من هذه الروم الغادرة الناكثة التى لا تحفظ عهداً ولا تفى بذمة . . . لو كان له أن ينتسب إلى أمٍّ غيرها لأنكر أنها أمه ، تلك تلك التى باعدت بينه وبين العرش شابًّا ، وحطمت تاج العز على رأسه كهلا ، وتوشك أن تجعل حديثه فى هذه الغزاة سخرية الساخرين وشماتة الكاشحين حتى يبلغ سن الموت !

ومد يداً إلى جيبه فأخرج جوهرة وقلادة ؛ فتملاهما طويلا ثم قذفهما إلى البحر وهو يقول وقد غلبه الدمع :

ـ تميمة راهب لا يؤمن بدين محمد، لم تحفظها صبية من السباء ؛ ولم تحرز ولدها كبيراً من الهزيمة !

ثم أطبق راحتيه على وجهه وبكى !

وثاب إلى نفسه بعد هنيَّات ، فدعا حاجبه إليه وقال له :

ـ قدِّم أسارى الروم إلى السيف !

وبُسطت الأنطاع ، وقام على رأس كل أسير حرسىٌّ بسيفه ؛ وتهاوت الرءوس عن أجسادها ، رأساً بعد رأس . ومسلمة يشهد قد اشتفت نفسه مما تجد . . .

وقُدم إلى السيف شيخ حُطمة قد بلغ الثمانين أو قاربها ، وهمّ الجلاد أن يرمى رأسه حين رفع الشيخ يده قائلا :

ـ كفّ ، إن لى حديثاً إلى الأمير ! . . .

وسيق الشيخ إلى حيث كان مسلمة يشهد :

ـ يا ولدى !

ـ اخرس . . . يتمتَ ولدك !

ـ هل لك فى صفقة رابحة ، فتبيعنى رأسى برجلين عربيين ؟

ـ رجلين عربيين ؟

ـ نعم ، فى الأسر عندى منذ سنين ؛ وإنهما لمن السادة فيما يبدو ، فإن شئت عفوتَ عن شيخ حطمة لا يحمل سيفاً ولا يدفع غارة ، واستنقذت أسيرين من قومك !

ــ جئ بهما !

ــ فيسمح لى الأمير أن أذهب إلى أهلى فأعود بهما !

ــ تحتال حتى تفر بدمك !

ــ ليس الغدر من طبعى !

ــ ولم يكن من طبع إليون القيصر ؟

ــ ذاك ابن إسكاف لا يمتُّ بعرق إلى أسرة نبيلة !

ــ وتمتّ أنت إلى قسطنطين الأكبر ؟

ــ ليس الكذب من طبعى !

ــ أمفاخرة فى هذا المقام يا ابن الغادرة !

ــ لم تغدر أمى قط !

ــ اخرس . . . رأسه يا حرسى !

ــ يموت إذن ذانك العربيان أيها الأمير ، وإنى لأظن لهما فى قومهما شأناً !

ــ ومن يكفلك حتى تعود ؟ . . .

أخذ الشيخ يقلب نظره فى وجوه الجند ، ثم أشار إلى فتى منهم :

ــ هذا يكفلنى أيها الأمير !

ــ تكفله يا عتيبة ؟

ــ قد كفلته !

ــ تبيع شبابك بهرمه ؟ إنه ليخادعك عن نفسه !

ــ قد كفلته !

هبّ مسلمة واقفاً قد بان فى وجهه الغضب ، ثم مضى إلى خيمته غير متلبّث ؛ وأحاط العرب بصاحبهم يسألونه مؤنّبين قد بدا فى وجوههم الإشفاق والغيظ :

ــ ما حملك على هذا يا عتيبة ؟

ــ شيخ فى ضائقة توشك أن تأتى على نفسه ، وقد توسّم فىّ مروءة ، هل أخلف ظنه ؟

ــ ولكن الروم أهل غدر يا عتيبة !

ــ ما كان يجمل بى غيرها !

ــ وإذا لم يعد كفيلك يا أبله ؟

ــ يصنع الأمير فى أمرى ما يبدو له !

ــ ولكن الأمير مغيظ محنق قد استلّ غدر الروم ما كان فى نفسه من خلال العفو والرحمة !

ــ يقتلنى به إذن !

ــ وتبيع رأسك برأس كافر ؟

ــ قد كان ما لا سبيل إلى الرجوع فيه !

وتفرق الجند عن صاحبهم محزونين ، وأوى عتيبة إلى خيمته قد امتلأت نفسه غمّاً وضاق بكل ما حوله . هذه أول

غزاة يغزوها ، ولعلها آخر غزاة ؛ إن الموت يتربص به ؛ وسيموت حين يموت لا شهيداً فى المعركة ولا مبكيًّا عليه ؛ وتترقب نوار حتى يعود كل الغزاة ولا يعود عتيبة ، فتبكيه دهراً ثم تسلو ؛ وتبكيه أمه كذلك ولكنها لا تسلو أبداً ؛ إن الأمهات لا ينسين من يموت من أبنائهن ؛ قد علم ذلك عن جدته الثكلى ، إنها ما تزال تذكر عمه عتبة وأباه النعمان كأنما فقدتهما منذ قريب ، على حين يغيب ذكرهما عن كل من فى الدار . . .

ما لهذه الخواطر تتزاحم الآن فى رأسه ؟ أميت هو إذنْ؟ فلماذا رمى بنفسه فى هذا المأزق ؟ ولكنه لا يكاد يستشعر شيئاً من الندم لشىء مما كان ؛ فما كان له خِيرة ؛ أكان يجمل به أن يقول على ملأ من الجند لذلك الشيخ : دعنى فلست من المروءة بحيث ظننت؟ وإن فى الأمر — إلى ذلك — احتمالا آخر؛ أليس ممكناً أن يكون ذلك الشيخ صادقاً فيما وعد ؟ فكيف يحول حبُّ الحياة ولؤم الطبع دون إطلاق أسيرين مسلمين ؟ . . .

وارتد خاطره إلى أمه ، وإلى صاحبته ؛ كيف يعود إلى نوار ولم يف لها بما وعد ؟ يالها سخرية أليمة ! إنه بدل أن يعود إليها برأس بطريق ، قد قدم رأسه فداء لرأس شيخ حطمة لا هو من البطارقة ولا من السوقة ؛ أكانت أمه تتوقع أن يصير

إلى هذه الخاتمة حين حاولت أن ترده فعصاها ؟ لقد وقع عتيبة فى شر أفظع مما كانت أمه تتوقع أن يكون !

ومد يده إلى جيبه فأخرج جوهرة وقلادة ، فتملاهما طويلا ، ثم بكى . . . أتحرزه هذه التميمة التى دفعتها إليه أمه مما يتوقع من شر؟ يا لهؤلاء الأمهات ! ما أضعفهن قلوباً وعقولا !

ومثل بباب الخيمة حرسىٌّ يدعوه إلى لقاء الأمير ، كشأنه ذات يوم منذ عام وبعض عام ، وكانت الجوهرة والقلادة فى مثل مكانهما الآن من يده ، ولكنه اليوم غير غافل عنهما . . .

ــ لأىِّ أمر يدعونى الأمير يا حرسى ؟

ــ لا علم لى !

ــ أفى خيمته هو أم فى الميدان ؟

ــ فى خيمته !

ــ وفى خلوة هو أم معه أحد ؟

ــ لا علم لى !

ــ تخادعنى عن نفسى يا حرسى !

ــ ليس لى مأرب !

ــ فحدِّثنى إذن بما تعرف . . .

ــ لست أعرف شيئاً !

ــ إذن فهو الموت ؟

ـ لا علم لى !

ـ وبسيفك أو بسيف غيرك ؟

ـ لا سيف لى !

ـ تبًّا لك !

ـ غفر الله لك !

وجالت الدموع فى عينى الفتى تأثراً ورقة ؛ فقال وأنفاسه تختلج :

ـ سامحنى فيما اعتديت يا صاحبى !

ثم صحبه كتفاً لكتف إلى خيمة الأمير مستسلماً وهو يحوقل ويسترجع ، قد ازدحمت فى رأسه صور الماضى القريب والبعيد ...

وكان الشيخ الرومى فى خيمة الأمير ، وقد وقف إلى جانبه عربيان كهلان فى زىٍّ منكر . . .

وثابت نفس عتيبة حين رأى غريمه ؛ رومىٌّ وفَىَ بذمته ! قد أفلت رأس عتيبة إذن من سيف الجلاد ؛ وأفلت رأس الرومى الشيخ ؛ هذان العربيان قد وهبا له الحياة ؛ ولعله كان يسومهما الخسف فى أسره ؛ ولكنهما الآن بحيث لا يملكان إلا أن يفتدياه من الموت ، رضيا أو كرها .

وأقبل الرومىُّ الشيخ على عتيبة يشكر له منّته ؛ فخجل الفتى ، ودبت الحياة فى وجنتيه الشاحبتين وأنغض رأسه ؛

علام يشكره ؟ لقد كفله مكرهاً ثم لم يسلم بعد من الندم على كفالته إياه ؛ وعض على شفته خزياً ، وكان الشيخ يلحظه بعينين فيهما إشفاق وحب ورحمة ، ووقف الأسيران العربيان بينهما يشهدان ويسمعان ؛ وكان مسلمة بن عبد الملك فى مجلسه القريب منهم يرى ويسمع صامتاً ، ثم نطق :

— أيها الشيخ ، قد علمنا ما حمل هذا الفتى العربىَّ على كفالتك ؛ إن العرب ما علمت لأهل مروءة ونجدة ؛ فما حملك أنت على الركون إليه دون من حوله من الجند ؟

— رأيت فى وجهه مخايل نبل !

— ولم تر هذه المخايل فى غيره من العرب ؟

— ورأيت عاطفة تدفعنى إليه ؛ فكأنما سمعت صوتاً ينادينى إليه !

— لأمر ما . . .

— لأن فيه ملامح من وجه ما زلت ألتمس مثله فى الناس فلا أرى !

— وجه عربى ؟

— وجه فتاة رومية !

— فتاة !

— ابنتى . .

ـ مالنا ولابنتك يا شيخ ؟

ـ استباها عربى فى أبيدوس منذ بضع وعشرين سنة ، فحملها ومضى إلى بلاده ، فلم تعد إلى أبيدوس قط من يومئذ !

ـ من أبيدوس أنت يا شيخ ؟

ـ بطريق أبيدوس . . . البطريق قسطنطين !

ـ قسطنطين . . . . . .

واعتدل الأمير فى مجلسه وشحب وجهه ونالت صوته حبسة فلم ينطق حرفاً . . . وذهل الفتى ودار رأسه . . بعض هذا الذى يسمع قد سبق إلى وهمه منذ لحظات ؛ أتكون أمه بنت هذا البطريق ؟ ولكنها لم تعترف بأنها رومية ، ولم تنكر أيضاً . . . أيكون هذا حقًّا ؟ يا للمفاجأة العجيبة ! لقد وعد نوار أن يمهرها تاج بطريق رومى، وأن يُخدمها ابنته . . . أكان يعنى أن يجعل رأس جده مهر عروس ، وأن يجعل فى خدمتها أمّه أو خالته ؟ . . .

وثقل الموقف على كل من يرى . . . الأمير قد ضاقت نفسه بما رأى وما سمع ، ولكنه لا يستطيع فى مجلسه حراكاً ولا تطلُّقاً . . . والشيخ يريد أن يمضى إلى خلوة يتحدث فيها إلى الفتى حديثاً لا يسمعه أحد . . . والفتى مشوق إلى حديث الشيخ ولكن شفتيه قد انطبقتا وجف لعابه فلا يستطيع

لسانه أن يلفظ حرفاً . . والعربيان الأسيران قد نال منهما الجهد واشتغال الفكر واللهفة إلى علم جديد عن أهل وبلد لم يرياهما منذ سنين طويلة ولم يسمعا عنهما نبأ . . .

وأذن الأمير للمجلس أن ينفض ليخلو إلى نفسه ساعة ...

وسيق العربيّان الطليقان إلى بعض مضارب الجند ليصيبا شيئاً من الراحة . . .

وتبع عتيبة البطريق الشيخ ذاهلا لا يكاد يحس أن رجليه تمسان الأرض !

ورغب الشيخ إلى الفتى أن ينزل عليه ضيفاً فى أبيدوس يوماً أو أياماً ، اعترافاً بجميله ، وليستقصى خبره ؛ فأجاب الفتى دعوته . . .

وتنبّه عتيبة بعد غفلة إلى أن الجوهرة والقلادة ما تزالان فى يده ، فرفعهما إلى عينيه كرّة أخرى يتملاهما ، وكانا ما يزالان على الطريق إلى أبيدوس . وبصر البطريق بالجوهرة والقلادة فى يد الفتى ، فاختطفهما وندّت من بين شفتيه صيحة ، وارتاع الفتى حين أطبق الشيخ عليه تتقبّض أصابعه فى لحمه وهو يقول فى مثل صوت المحتضر :

ــ ذاك والله أنت يا بنى ، وتلك ابنتى !

وانكشف الغطاء كله لعينى الفتى . . .

واستسلم للشيخ مسلوب الإرادة قد محا هذا اللقاء من رأسه صفحات وأثبت صفحات . . .

وأوى به البطريق إلى دار أنيقة فى أبيدوس ، ثم دعا أهله رجلا رجلا وامرأة امرأة ليتعرفوا إلى نسيبهم العربى ، ومثلت بين يديه امرأة كأنها سبيكة ، فى مفرقها جوهرة وعلى صدرها قلادة ؛ فوثب إليها عتية يريد أن يضمها إليه ويسند رأسه إلى كتفها وهو يهتف ذاهلا :

ــ أمى سبيكة !

قال الشيخ وربّت كتفه :

ــ تلك خالتك يا بنى ، توءمة لأمك ، وما كان اسم أمك سبيكة يوم ذهبت ، ولكنى أوثر منذ اليوم أن يكون اسمها سبيكة . ليت شعرى كيف صار اسم أختها « رُودْيا » فى بيت سيدها ؟

قال الفتى :

ــ ومن تكون روديا هذه يا أبى ؟

ــ بنتٌ أخرى ، استباها الغزاة فى غارة معاوية ! . . .

ــ وغاب عنك خبرها من يومئذ ؟

ــ وغاب عنى خبرها من يومئذ !

ــ ولا أثر يدل عليها ؟

– جوهرة وقلادة كذلك !

وجاءت امرأة البطريق فضمته إلى صدرها وهى تصيح :

– ابنى ! ابنى !

وعرف عتيبة كثيرين وكثيرات ، كلهم من بنى الخال والخالة ، لو وافق أحداً منهم قبل اليوم فى المعركة لعلاه بسيفه راجياً عند الله الأجر . . .

وأخذ أبوه الشيخ يطوف به فى حجرات الدار :

– هذه الدُّمى كانت تلعب بها أمك فى الطفولة يا عتيبة . . وهذه السلة كانت تجمع فيها الزهر من الحديقة . . . وهذه الشجرة هى غرستها بيديها ولم تذق من ثمرتها شيئاً . . . وهذا الثوب آخر ما خلعتْه قبل أن يذهب بها أبوك !

وكانت الدموع تنحدر على خدى الشيخ فتجاوبها دموع على خدى الفتى . . .

واحتمل الفتى ما احتمل من آثار أمه ، ومما أهدى إليه الشيخ من طرائف الروم ، ثم ودع أسرته هذه الجديدة وعاد إلى معسكره ، يشيعه عشرات من بنى الأخوال والخالات . . .

وكان الأمير يرقب مقدمه قلقاً ؛ فلم يكد يؤذن بحضوره حتى دعاه إليه فى خيمته . . .

– وأيقنتَ من صدق ذلك كله يا عتيبة ؟

ـ ورأيتُ بعينيَّ دلائل اليقين !

ـ وحدثك البطريق بخبره كله ؟

ـ وحدثنى بكل ما كان من قبل ومن بعد !

ـ وعرفت خئولتك فرداً فرداً ؟

ـ وعرفت خئولتى جميعاً إلا فرداً . . .

ـ من ؟ . . .

ـ خالتى روديا

ـ روديا ! . . .

ـ نعم ، فتاة أخرى استباها العرب فى غزاة معاوية !

ـ وغاب عنه خبرها من يومئذ ؟

ـ غاب عنه . . .

ـ ولا أثر يدل عليها ؟

ـ جوهرة وقلادة كهاتين !

ـ وماذا تنبئ عن خبرها جوهرة وقلادة ؟

ـ مثلَ ما أنبأته جوهرة أمى وقلادتها !

ـ ولكن أمك ولدتك واستحفظتك جوهرتها وقلادتها !

ـ وتظن روديا لم تلد ولم تستحفظ أحداً ؟

ـ من يدرى ؟

ـ وا أسفا !

ــ علام تأسف يا عتيبة ؟

ــ لقد رجوت ــ منذ عرفت ــ أن يكون لى فى المسلمين خالة آوى إلى مبرّتها بعض أيامى ، وأن يكون لى من بنيها خئولة !

ــ إنك ما علمت لذو وفاء يا عتيبة ؛ فأنا لك فى كل ما أمّلت يا أخى !

ــ وأين أنا منك يا مولاى ؟

ــ ابن أخ أكدت الحادثات نسبه !

ــ لا زال معروفك يطوّق عنقى يا مولاى !

وأوشكت الدموع أن تنبثق من عينى الأمير ، فهب واقفاً ومال بوجهه ناحية ؛ ونهض الفتى فاستأذن منصرفاً إلى خيمته قد توزّعته أشجانه !

وارتمى بثيابه على فراشه مكدود النفس ، وحلق بالوهم فى أجواء بعيدة . . . ولكنه لم يلبث أن انتبه من سرحته على صوت حرسى يدعوه ثانية إلى لقاء الأمير ولم تمض ساعة منذ غادر مجلسه ذاك ؛ وكان أحد العربيين الطليقين فى مجلس الأمير وقد أبدل ثياباً بثياب وسوى شعره وأحفى شاربه فبدا فى منظر آخر غير ما كان منذ قليل . . .

ــ مولاى !

ــ أتعرف هذا العربى يا عتيبة ؟

ـ أحد الرجلين اللذين كانا . . .

ـ نعم ، فهلا عرفت اسمه ؟

ـ وما يكون اسمه ؟

ـ عتبة . . .

قال الرجل متمسماً :

ـ عتبة بن عبيد الله الرقّى !

ـ عمى ، أبو نوار !

ـ من نوار ؟ إنما أنا أبو بشير !

ـ نوار أخت بشير

ـ ابنتى ؟

ـ ابنة عمى !

ـ فأنت . . .

ـ عتيبة بن النعمان !

ـ وماذا فعل النعمان ؟

ـ مات . . .

وتحيرت دمعتان فى عينى الرجل ، ولم يملك الأمير جأشه فأرسل دمعه كذلك ، وقال الفتى وجسده يرتعد كله من الانفعال :

ـ وكنتَ فى أسر البطريق يا عم كل هذه السنين ؟

ـ نعم !

ــ وكانت ابنة البطريق فى أسر النعمان !

ــ وى !

ــ ولم يكن النعمان يدرى ولم يكن البطريق . . .

ــ ولو علما ؟

ــ لم تبق سبيكة فى دار النعمان حتى تلد له عتيبة ، ولم يبق عمى فى أسر البطريق !

ــ فأنت ابنها إذن ؟

ــ نعم !

ــ وجدُّكَ البطريق ؟

ــ أبو أمى !

ــ ربحتْ صفقة البطريق !

١٩
وفاء النذر

وعاد عتيبة إلى الرقة مثقلا بالغنائم ؛ لم يكن معه رأس بطريق لمهر نوار ؛ ولكن معه أباها . . .

ونشر على عينى أمه ما عاد به من طرائف الرحلة :

ـ هذه الدمية . . . وهذه السلة . . . وهذا الثوب . . .

ـ من أين لك هذا يا عتيبة ؟

ـ من أبيدوس !

ـ وما فعل أولئك القوم ؟

ـ ضيّفوا ولدك فأكرموه و برُّوه !

ـ وعرفوا أمه ؟

ـ وعرفهم ولدها !

ـ وما فعل الله بأبى ؟

ـ ما زال يحمل السيف ، ويلزم الثغر ، ويتعرض للشهادة !

ـ وأين لقيته ؟

ـ بين السيف والنطع !

ـ أسيراً . . . يقدَّم للقتل ؟

ـ ولكننى فككت سراحه وحقنت دمه !

ـ جوزيت من ولد بر !

ـ ذاك جزاء معروفك وبرك !

ـ ومن هذا الذى صحبك إلى الدار ؟ كأننى أعرفه !

ـ قد حدستُ ذلك !

ـ من يكون ؟

ـ عمى عتبة . . .

— عمك عتبة ؟

— نعم !

— وأين لقيته ؟

— فى أبيدوس !

— قد ذكرتُه ! . . .

— ماذا ؟

— كان أسيراً فى دار قسطنطين . . .

— كنت تعرفين أنه هنالك ؟

— ولم أكن أعرف أنه عمك !

ولم يكن أبوكِ يعرف أنك امرأة أخيه !

— فقد تعارفا إذن ؟

— بل افترقا قبل أن يعرف أبوك !

— ثم عرف ؟

— نعم !

— وعرف أنه أبو فتاتك ؟

— لم أنبئه بعد ! . . .

— وتأمل أن تنبئه ؟

— نعم ، إذا خرجنا كرّة أخرى لغزو الروم !

— وتطيب نفسك بالخروج لغزوهم كرة أخرى ؟

ـ وماذا يمنع ؟

ـ إن لك هنالك خئولة !

ـ قد كنت أعرف ذلك منذ بعيد !

ـ وكتمتَ عنى ؟

ـ برًّا بك وإعظاماً لأمومتك ؟

ـ بارك الله لك يا بنى !

ـ ولك يا أم !

وكان الاحتفال بزواج عتيبة ونوار حاشداً ؛ قد ركب له مسلمة من دمشق إلى الرقة فى موكب من مواكبه ؛ فأفاض من بره ولطائفه على العروسين الشابين وأهليهما ما كان حديث المدينة ؛ ولقى سبيكة فتحدث إليها طويلا ، لم تحتجب منه إلا بنقاب شفيف تجول من ورائه عيناها كما وصف النعمان من رؤياه على الأمير ذات مساء . . .

ثم أزمع السفر ، فودعها وودع أهل الدار جميعاً وهو يقول لعتيبة :

ـ إن بيننا نسباً وصهراً يا ابن أخى ، فاذكر عمك مسلمة كلما ضاق بك أمر . . .

ثم ركب وركبت حاشيته ، وودعته المدينة كلها إلى حدود البادية، ولكنه كان فى شغل بما يعترك فى نفسه من ألوان

الانفعال عن كل ما يحيط به من مظاهر الحفاوة ؛ وارتسمت في ذهنه منذ ذلك اليوم صورة لم تفارقه قط فى سفر ولا حضر ؛ هى صورة سبيكة ، أو لعلها صورة أمه رُودْيا ؛ فلم يكن بين الصورتين كبير فرق ؛ ولكن شفتيه لم تلفظا السر الذى ضم عليه أضلاعه حتى مات .

* * *

خاتمة

مسجد الشيخ الصالح تحت أسوار القسطنطينية . . .

عين مسلمة . . .

خليج أبى أيوب . . .

ممرّ العرب . . .

ذلك كل ما بقى ثمة من آثار الغزوة التى كانت سنة ٩٨ للهجرة !

ومضى مئتان من السنين ، ثم مئتان ، ثم ثلاثمئة ، وكان محمد بن مراد ، محمد الفاتح ابن عثمان ، سنة ٨٥٧ فافتتح القسطنطينية وجعلها دار إسلام ، وما تزال دار إسلام من يومئذ !


دار المعارف
تقدم لناشئة العروبة
بين السابعة والثانية عشرة من أعمارهم
المكتبة الخضراء للأطفال
تحفة جديدة مبتكرة ورائعة
من القصص الخيالية العالمية
سيحتفي بها كل قطر من الأقطار العربية
لما فيها من فخر للكتاب العربي .
سيحتفي بها كل فتى وفتاة
لما فيها من متعة جميلة لعيونهم وقلوبهم .
سيحتفي بها كل والد ووالدة
لما تقدم لأطفالهم من غذاء صالح لعقولهم ونفوسهم .
سيحتفي بها رجال التربية والتعليم
لما فيها من وسيلة طيبة لتحبيب الكتاب العربي الى الناشئة
ولتوجيههم الى طريق المعرفة والخير والجمال ...
صدر منها :
١ . أطفال الغابة
٢ . سندريلا
٣ . السلطان المسحور
تحت الطبع :
٤ . القداحة العجيبة
٥ . البجعات المتوحشة
٦ . الأميرة الحسناء
ثمن النسخة بغلاف ١٥ قرشا - مجلدة بكرتون ٢٠ قرشا